رسالة اليونسكو

أبريل-يونيو 2018

أهلاً بكم في الأنثروبوسين!

منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

ISSN 2220-3540
9 772220 354065 01802

اكتشفوا رسالة اليونسكو وساهموا في التعريف بها!

اشتركوا في النسخة الإلكترونية

مجاني 100 %

http//ar.unesco.org/courier/subscribe

تصدر في 9 لغات

الإنجليزية والعربية والصينية والإسبانية والإسبرانتو والفرنسية والبرتغالية والروسية والسردينية.

كونوا شركاء فاعلين، اقترحوا إصدار رسالة اليونسكو في لغات إضافية..

الاتصال: i.denison@unesco.org

إلعبوا دورا رياديا!

ساهموا بصفة فعّالة في إنجاح *رسالة اليونسكو* بالتشجيع على ترويجها واستعمالها طبقا لسياسة الاستعمال الحر للمنظمة.

http://fr.unesco.org/open-access

اشتركوا في النسخة الورقية

- سنة واحدة (4 أعداد): 27 يورو
- سنتان (8 أعداد): 54 يورو

وحيث أن هذه النشرية ليس لها غاية ربحية، فإن سعرها يُغطّي فقط تكاليف طبعها وإرسالها.

عرض تفضيلي للاشتراكات المُجمّعة: 10 % تخفيض بداية من خمسة اشتراكات.

لمزيد التفاصيل: http://publishing.unesco.org

DL Services – C/O Michot Entrepôts
Chaussée de Mons 77,
B 1600 Sint Pieters Leeuw, Belgique
Tél.: (+ 32) 477 455 329 E-mail: jean.de.lannoy@dl-servi.com

2018 – تصدر منذ 1948

تصدر ***رسالة اليونسكو*** فصليا، عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة. هدفها التعريف بالمثل العليا للمنظمة من خلال نشر تبادل الأفكار حول مواضيع ذات بُعد دولي ومتعلقة بالمهام الموكولة إليها.

تصدر ***رسالة اليونسكو*** بفضل الدعم السخيّ الذي توفّره جمهورية الصِّين الشعبية.

المدير: فانسان دي فورني
مديرة التحرير: ياسمينا شوبوفا
مدير الإنتاج والترويج: إيان دنيسون
أمينة التحرير: كاترينا مركيلوفا
محرّرة: شان سياورونغ
محرّرة النسخة الإلكترونية: مالاهات إبراهيموفا
إخراج الصور: دانيكا بيجلجاك
الإنتاج الرقمي: دنيس بتزاليس
العلاقات مع وسائل الإعلام: لايتيسيا كاسي
مساعدة الإدارة والتحرير: كارولينا رولان أورتيغا

المحرّرون:
الإنجليزية : شراز سيدهفا
العربية : أنيسة البرّاق
الصينية : سون مين ودار الصين للترجمة والنشر
الإسبانية : بياتريز خواز
الفرنسية : ريجيس ميران
الروسية : مارينا يالويان ومارينا يرتسيفا
الترجمة : منير الشرفي، خالد أبو حجلة، نبيل السّخاوي، لانغسباير
التصميم : لايتيسيا سوفاجي
صورة الغلاف: : © فالكو
الطباعة : اليونسكو
النشرات المشتركة:
البرتغالية: آنا لوشيا غيمارايس
اسبيرانتو: تريزورو هوانغ ينباو
السردينية: دياغو كرايين
الإرشادات وحقوق إعادة النشر:
courier@unesco.org
7, place de Fontenoy, 75352 Paris 07 SP, France

© UNESCO 2018

© UNESCO 2018

ISSN 2220-3540 • eISSN 2220-3559

مجلة فصلية حرّة الإقتناء، بترخيص من Attribution-ShareAlike 3.0 IGO (CC-BY-SA 3.0 IGO) *(http://creativecommons.org/licenses/by-sa/3.0/igo/)*

يعترف مستعملي محتويات المجلة بقبولهم شروط الإستعمال المنصوص عليها في نظام التوثيق المفتوح لليونسكو *http://ar.unesco.org/open-access/*

يطبق هذا الترخيص حصريّا على استعمال النصوص. بالنسبة لاستعمال الصور، من الضروري توجيه طلب إلى اليونسكو للحصول على ترخيص مسبق.

إن التسميات وطريقة تصميم المعطيات الواردة في هذه النشرية لا تعبّر عن أي موقف لمنظمة اليونسكو حول الوضع القانوني للدول، وللأراضي، وللمدن أو المناطق، أو حول الهيئات الحاكمة، أو الحدود المرسومة.

تعبّر المقالات الواردة في هذه النشرية عن أفكار وآراء مؤلّفيها، وهي ليست بالضرورة آراء منظمة اليونسكو ولا تلزمها بأي شكل من الأشكال.

رسالة اليونسكو

في انتظار الأبطال

عمل للفنان البريطاني ماندي باركر، من مجموعة بينالتي - كرة قدم الفضلات البحرية

© Mandy Barker (mandy-barker.com)

تشرعون الآن في قراءة هذا العدد من الرسالة لأبريل - يونيو 2018. لِيكن في علمكم أنكم حاليا تعيشون في دهر البشائر، وفي حقبة الحياة الحديثة، وفي الفترة الرباعية، وفي عصر الهولوسين – وكلها أقسام مدرجة على سلّم الأزمنة الجيولوجية لكوكبنا، وسوف يتم دون شك، قريبا، إضافة قسم جديد: الأنثروبوسين.

دخلت الأرض عصر الهولوسين (من اللغة اليونانية «*كامل*» و«*حديث العهد*») منذ 10.000 سنة. لكن الأنشطة البشرية كان لها تأثير هام وواسع الانتشار على نظام الكوكب لدرجة أن العلماء أصبحوا يتساءلون منذ عقدين إن كان من الأجدر الحديث عن عصر جديد، أطلق عليه في الأول عالم البيولوجيا الأمريكي أوجان ف. ستورمر اسم أنثروبوسين (من اليونانية «*إنسان*» و«*حديث العهد*»). وشاعت هذه الكلمة في بداية السنوات 2000 بفضل الهولندي بول كروتزن الحائز على جائزة نوبل للكيمياء. ومنذ ذلك الحين، أصبحت مثيرة للجدل في الأوساط العلمية مصدراً للقلق لدى الرأي العام.

ويعود إلى المجموعة الدولية لعلماء الحفريات والجيولوجيا والطبقات، وخاصّة إلى *اللجنة الدولية للطبقات* وإلى *الاتحاد العالمي للعلوم الجيولوجية*، إثبات ما إذا كان الأمر يتعلّق فعلا بعصر جيولوجي، أم إذا كان الأنثروبوسين سوف يذكر في موسوعات المستقبل كمفهوم فلسفي يهدف إلى تحذير البشرية في القرنين العشرين والحادي والعشرين من التهديدات التي أحاطت بالكوكب جرّاء الأنشطة البشرية.

في انتظار هذا القرار، يتواصل الجدال والدفاع والخصام بين العلماء. كيف يمكن ضبط تاريخ بداية هذا العصر الجديد المُفترض؟ بعبارة أخرى، منذ متى يمكن إثبات مسؤوليتنا كبشر في هذا التحوّل الذي قد يتبيّن أنه سيفتك بالكوكب؟ يرى البعض أن الأنثروبوسين ليس إلّا تسمية إضافية للعصر الذي نُسمّيه الهولوسين، حيث بدأ الإنسان يمارس ضغطا على المحيط منذ 10.000 سنة، أي منذ تحضّره ومنذ ابتكار الفلاحة. و يرى البعض الآخر أن الأنثروبوسين بدأ حوالي سنة 1800، مع الثورة الصناعية. ويرى طرف ثالث أن الأنثروبوسين وُلد مع أول فطر ذريّ سنة 1945.

رغم هذه الاختلافات، نادرا ما نجد من ينكر تدهور حالة الكوكب بشكل سريع ومأساوي أكثر من أي وقت مضى، خلال نصف القرن الأخير: أكداس ضخمة من البلاستيك على الشواطئ وفي البحار، تطوّر غير مسبوق لموادّ جديدة تُغطّي سطح الأرض وغير قابلة لإعادة التصنيع إلا نادرا، تربة مُتخمة بالأسمدة، ارتفاع نسبة حموضة البحار، نسبة تلوّث غير مسبوقة، تآكل الغابات الاستوائية، تعطل الأنظمة البيئية، الانقراض المكثف للأجناس وتقلص التنوّع البيئي، ارتفاع الحرارة...

من المُخطئ؟ الإنسان – حسب أغلبية العلماء. ويبقى السؤال المطروح: هل نتحمّل جميعا نفس القدر من المسؤولية؟ بعضهم يُوبّخ قبل كل شيء النظام الرأسمالي الذي نشأ في الغرب، ويتحدّث عن الكابيتالوسين (عصر الرأسمالية) أو الأكسيدنتالوسين (عصر الغرب). هل نحن مندفعون نحو الكارثة؟ ترتفع بعض الأصوات لتتنبّأ بنهاية العالم! وها أن مفاهيم أخرى مثل شتولهوسين أو ثاناتوسين تروج لتُنذر بأن الهول يحوم حولنا، وبأن الموت تترصّدنا... وحتى الخبراء الأكثر اعتدالا فلا تقلّ حيرتهم أمام تردّد أصحاب القرار. «*كل شيء يسير كما لو أن البشرية، التي تغطّ في سباتها، تنتظر نهاية الفيلم والوقت الذي سيأتي فيه الأبطال ليُعيدوا ترتيب كل شيء، والذي سنشعر فيه بالسعادة إلى الأبد*». هذا ما سنقرأه في هذه الصفحات.

المحتويات

29-6

زاوية كبرى

7 **الأنثروبوسين: الرهانات الأساسية لنقاش علمي**
بقلم ليز رجان إيسبرنر وفيليب لينا

11 **البشرية قوة جيولوجية**
ديباش شاكرابارتي
يجيب عن أسئلة شيراز سيدهفا

15 **الأعباء الثقيلة للمحيط التكنولوجي**
بقلم يان زالاسيوفيتز

18 **الضفدعة الصغيرة التي تريد استرجاع بريقها**
بقلم كارلا جيميناز كومري

20 **تغيّر المناخ يهدّد بنزاعات جديدة**
بقلم كيتلين إ. ويريل وفرانشيسكو فيميا

23 **من منظور دومينيكي: أنثروبوسين أو كابيتالوسين؟**
بقلم أندرياس مالم

26 **كفى من خطاب التفزيع!**
فرانسيس شاتورينو
يجيب عن أسئلة ريجيس ميران

28 **معجم الأنثروبوسين**

37-30

زوم

يوم عادي في حياة كلّو
إنياسيو مارين
وكاترينا مركيلوفا

أفكار

39 **نحن، خدم كوكب الأرض ومستأجِروه**
بقلم سليمان بشير دياني

42 **نحو «كرولة» مفهوم الإنسانية**
بقلم ميراي ديلماس ـ مارتي

47 **رسالة للشباب**
بقلم عبد الرحمان أ. وابري

الأحداث

55 **أثينا: كتب في كل مكان**
بقلم آنا روتسي

56 **ملء الفراغ الثقافي**
بقلم لوسي موشيتا

58 **الشبان الأفارقة: ابتكار سياسة جديدة**
بقلم حميدو آن

60 **لِنصغِ إلى نداء البحيرة**

ضيفتنا

بيبي راسل: الأنامل السّحرية
أجرت المقابلة
كريستا بيكات (اليونسكو)
وياسمينا شوبوفا

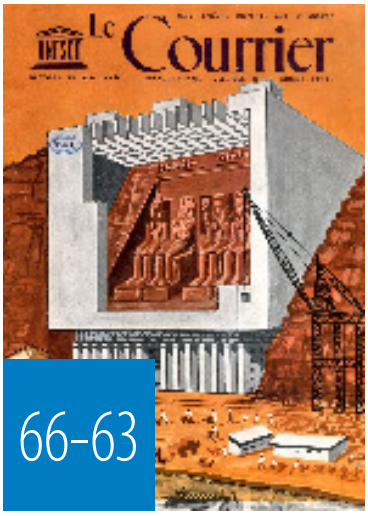

خاص بالذكرى 70

مدرسة الفكر الحر
بقلم روبرتو ماركاريان

أهلا بكم في الأنثروبوسين!

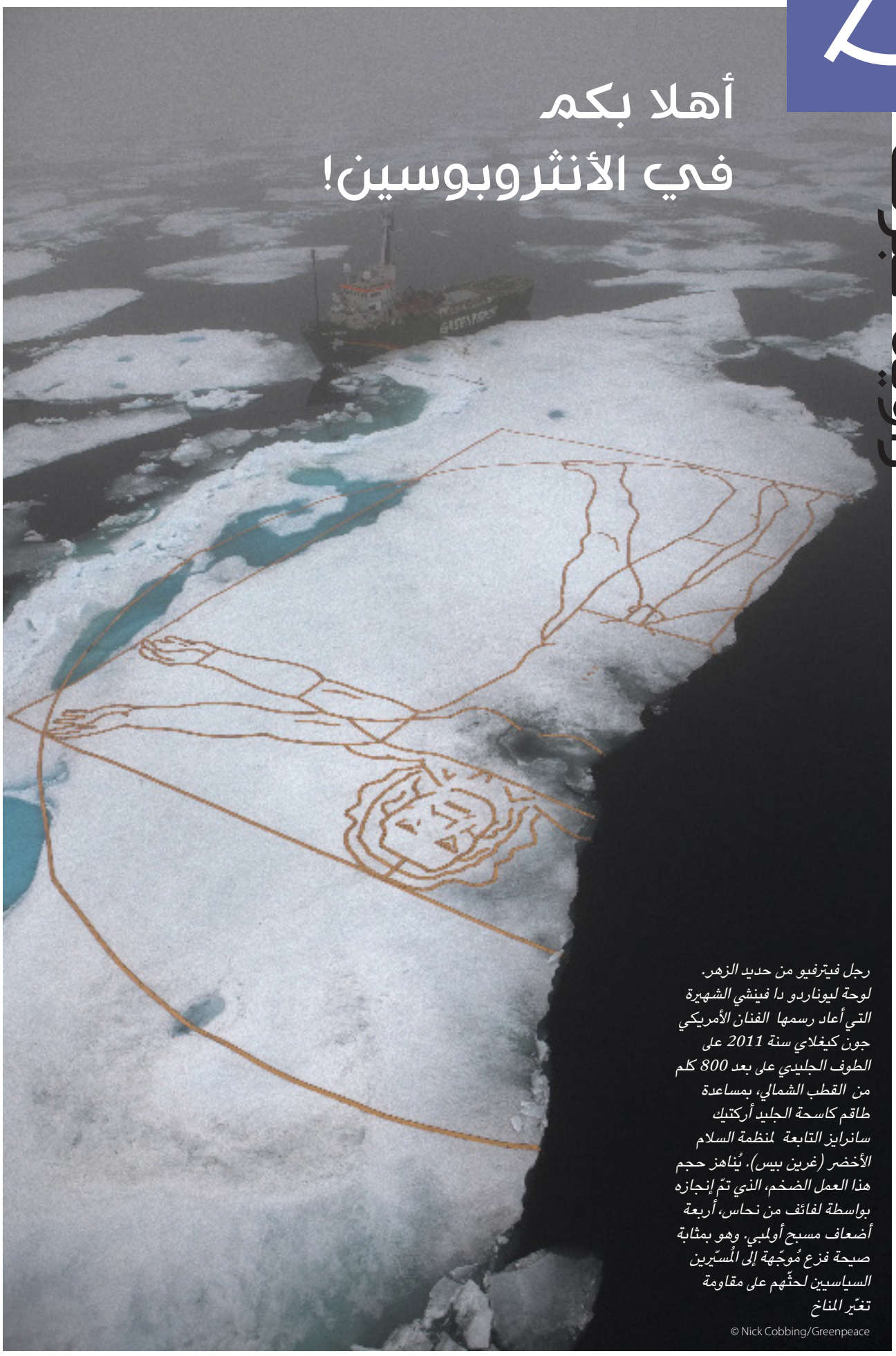

رجل فيترفيو من حديد الزهر. لوحة ليوناردو دا فينشي الشهيرة التي أعاد رسمها الفنان الأمريكي جون كيغلاي سنة 2011 على الطوف الجليدي على بعد 800 كلم من القطب الشمالي، بمساعدة طاقم كاسحة الجليد أركتيك سانرايز التابعة لمنظمة السلام الأخضر (غرين بيس). يُناهز حجم هذا العمل الضخم، الذي تمّ إنجازه بواسطة لفائف من نحاس، أربعة أضعاف مسبح أولمبي. وهو بمثابة صيحة فزع مُوجّهة إلى المُسيّرين السياسيين لحثّهم على مقاومة تغيّر المناخ

© Nick Cobbing/Greenpeace

الأنثروبوسين:

الرهانات الأساسية لنقاش علمي

بقلم ليز رجان إيسبرنر وفيليب لينا

تمت صياغة مصطلح الأنثروبوسين لتوضيح مدى تأثير التراكم السريع لغازات الدفيئة على المناخ والتنوع البيولوجي، بالإضافة إلى الضرر الدائم الناجم عن الإفراط في استهلاك الموارد الطبيعية. ولكن، هل ينبغي أن نجعل من هذا المفهوم حقبة جيولوجية جديدة؟ النقاش يحتدم بين العلماء. وقد تأخر وضع حلول بهذا الخصوص. ونحن نواجه في الحقيقة إنكارا جماعيا، نتيجة لإيمان ساذج بالتقدم، وللإيديولوجية الاستهلاكية واللّوبيات الاقتصادية القوية.

يوجد مصطلح الأنثروبوسين اليوم في عناوين المئات من الكتب والمقالات العلمية والآلاف من الاقتباسات، ويستمر ارتفاع نسبة استخدامه في وسائل الإعلام. تم اقتراح هذا المصطلح لأول مرة من طرف عالم الأحياء الأمريكي أوجين ف. ستورمر، ثم انتشر بين العامة في بداية سنوات 2000 من قبل العالم الهولندي بول كروتزن الحائز على جائزة نوبل للكيمياء، للدلالة على العصر الذي بدأت فيه الأنشطة البشرية في إثارة تغييرات أحيائية-جيوفيزيائية على الصعيد العالمي. وقد لاحظ الباحثان أن هذه التغيرات تبعد نظام الأرض عن التوازن النسبي الذي كان يحققه منذ بداية عصر الهولوسين، قبل 11700 سنة.

© Daniel Beltrá/Greenpeace

صورة جوّية تشهد على إزالة الغابات في شمال إقليم بارا في البرازيل (2013). وحسب ما أوردته صحيفة لوموند الفرنسية، فإن الدولة قلّصت من إزالة الغابات بنسبة 84% بين سنتي 2004 و2012، قبل أن تعود الغابات للنمو من جديد

وقد اقترحا القيام بتحديد رمزي لبداية هذا العصر الجديد عند سنة 1784، وهي السنة التي أتقن فيها جيمس واط (المملكة المتحدة) تطوير المحرك البخاري، موازاة مع بداية استخدام الطاقة الأحفورية والثورة الصناعية.

من عام 1987 إلى عام 2015، جمع مشروع علمي واسع ومتعدد التخصّصات، وهو *البرنامج الدولي للغلاف الأرضي والمحيط الحيوي*، مجموعة من البيانات حول مفعول الأنشطة البشرية في تغيير خصائص نظام الأرض.

وقد أبرزت دراسات أخرى أنجزت في عام 1950، تستند في الآن نفسه على عينات جليدية قديمة من القارة القطبية الجنوبية وعلى التشكيل الحالي للغلاف الجوي، تم تحليلها في مرصد ماونا لوا (هاواي)، تراكما متسارعا لغازات الدفيئة، بالأساس ثاني أكسيد الكربون. وفي عام 1987 أنشئت *الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ*، المكلفة بتقييم التأثير المناخي لهذه الظواهر.

التسريع الكبير

وبعد تجميع كل هذه البيانات، قام السويدي جوهان روكستروم والأمريكي ويل ستيفن وزملائهما من *مركز ستوكهولم للمرونة* في عام 2009 وعام 2015 بوضع قائمة بالحدود التسعة التي من شأن تجاوزها أن يشكل خطرا جسيما.

© Guillaume Bression - Carlos Ayesta (www.fukushima-nogozone.com)

أحلام مُفزعة، جزء من مجموعة أنجزها غيوم برسيون وكارلوس أياستا في المنطقة المُحجّرة في فوكوشيما سنة 2013. كيف يُمكن إظهار ما لا يُمكن مُشاهدته ولا الإحساس به؟ اختار الفنانان الفرنسي والفينيزولي الشريط البلاستيكي ليُصبح النشاط الإشعاعي قابلا للمشاهدة

غير أن هذا التجاوز قد حصل بالفعل مع أربعة منها: المناخ، والتغير في الغطاء النباتي، وتآكل التنوع البيولوجي أو التقلص الحيواني (الانقراض الجماعي السادس)، والتدفقات الكيميائية-الأرضية-الأحيائية التي تلعب فيها دورات الفسفور والنيتروجين دورا هاما بشكل خاص. كما بيّنوا أن جميع المؤشرات المتاحة حول استهلاك الموارد الأولية، واستخدام الطاقة، والنمو الديموغرافي، والنشاط الاقتصادي، وتدهور المحيط الحيوي قد ارتفعت بقوة بعد الحرب العالمية الثانية، وقاموا بتسمية هذه المرحلة، مرحلة التسريع الكبير. ويذهب مراقبون آخرون، منذ سبعينات القرن الماضي، لحد التحدث عن فترة تسريع مفرط. وتوصف هذه الاتجاهات بأنها «غير مستدامة».

الأنثروبوسين: تعبير مجازي أم عصر جيولوجي حقيقي؟

يبدو أن هناك إجماع حول الاعتراف بأن العديد من خصائص نظام الأرض قد بدأت تتطوّر في الفترة الأخيرة خارج نطاق التغيرات الطبيعية لعصر الهولوسين، وأصبح التحدث عن الأنثروبوسين مقبولا أكثر فأكثر باعتبار الإنسان متسببا في هذا الوضع. غير أن مجموعة من العلماء قرروا تجاوز التعبير المجازي والأداة المرجعية العملية المتعددة التخصصات: اقترحوا أن يرقى الأنثروبوسين رسميا إلى مرتبة العصور أو الحقب الجيولوجية، مثل الهولوسين أو البليستوسين. وتعهد *فريق العمل حول الأنثروبوسين* بتقديم هذا الاقتراح إلى *الاتحاد الدولي للعلوم الجيولوجية*.

لكن موافقة الأخصائيين في علم الطبقات الجيولوجية على وجود حقبة جديدة، مشروطة بوجود انفصام واضح على الصعيد العالمي بين الطبقات الرسوبية لحقبتين. غير أنه، على الرغم من أننا نلاحظ وجود الكربون الناجم عن النشاط البشري على الرواسب منذ خمسينيات القرن التاسع عشر، فإن هذا لا يعتبر كافيا.

تقترح المجموعة إذا تحديد تغير الحقبة عند سنة 1950، التاريخ الذي ظهرت فيه على الرواسب العديد من المكونات الكيميائية وجزيئات البلاستيك التي يعود مصدرها لآثار الأنشطة البشرية: وهو يمثل أيضا بداية التسريع الكبير. وعلى أية حال، فإن احتمال عدم الاعتراف بالأنثروبوسين كعصر جيولوجي لا يلغي بأي شكل من الأشكال الاستخدام العلمي للمصطلح، كما يتم حاليا.

وعلى الرغم من قصر مدة وجوده، أثار مفهوم الأنثروبوسين بالفعل كثيرا من الجدل. وقد تم وضع المصطلح نفسه محل تساؤل. حيث تساءل المؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا حول كلمة أنثربوس، التي تحيل إلى الجنس البشري بصفة عامة.

فمن يتحمل مسؤولية تجاوز الحدود الأحيائية-الجيوفيزيائية، سوى الإنسان الغربي ونظام اجتماعي واقتصادي معين؟ ومن هنا تضاعفت المقترحات البديلة: أكسيدنتالوسين (إشارة إلى الغرب)، كابيتالوسين (شارة إلى الرأسمالية) الخ. وهناك من يعتقد، مثل المتخصصين في التاريخ الكوني والبيئي، أنه لا يوجد فاصل وجودي وأن الطابع الاستثنائي للنمو الغربي (الانحراف الكبير) يجب اعتباره على المدى البعيد.

وحسب رأيهم، مارس الإنسان على مدى التاريخ، على الأقل خلال السنوات الأربعين ألف الماضية، تأثيرا متزايدا على البيئة المحيطة، إذ ساهم، على سبيل المثال، في انقراض الحيوانات الضخمة في أمريكا وأستراليا. يدافع إذا بعض العلماء عن عصر الأنثروبوسين طويل المدى، يتألف من فترات فرعية مثل التصنيع الرأسمالي (1850–1950) والتسريع الكبير. إلا أن معظمهم يعترف بضرورة التخلي عن وجهة نظر أحادية وحتمية للزمن التاريخي.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حذر العديد من العلماء من الطابع غير القابل للتعميم وغير المستدام للنموذج الاقتصادي الغربي. حينئذ لم يتم تجاوز أية حدود وكانت البشرية تستهلك نسبة أقل من موارد الكوكب. لكن الدينامية أطلقت. وفي مطلع سبعينات القرن الماضي، ازداد الوضع سوءا وتضاعفت التحذيرات وتراكمت البيانات العلمية. وفي كلتا الفترتين، كان من الممكن القيام بتغيير تاريخي. وقد أصبح الأمر أكثر صعوبة اليوم.

إنكار جماعي

لماذا نرفض الانتباه لهذا الأمر؟ بإمكاننا ذكر عدة أسباب: منها الإيمان الأعمى بالتقدم والتنمية، أي بنظام تزداد فيه بشكل لا متناهي كمية الثروات المتاحة، والاعتقاد في قدرة العلم والتكنولوجيا على حل جميع المشاكل والآثار الخارجية السلبية (مثل التلوث، على سبيل المثال)؛ ومنها المصالح القوية المستفيدة من هذه الدينامية والتي تمارس ضغوطات مكثفة؛ وكذلك استهداف خيال المستهلك من خلال وسائل الإعلام التي تخلق تعطشا للاستهلاك الفردي، سواء لأغراض الراحة أو للتميز ونيل الشهرة.

ومن المثير للدهشة أن العلوم الانسانية والاجتماعية لطالما ظلت بعيدة عن هذا الإشكال رغم أنه يحدد مستقبل البشرية، إضافة إلى كون هذه العلوم متمركزة محوريا حول الإنسان، وقد اعتبرت أن المجال يخص البحث في العلوم الطبيعية بامتياز.

إن ظهور مفهوم الأنثروبوسين يمنحهم مسؤولية دراسة وشرح الكيفية التي تمكنت من خلالها المجتمعات البشرية من إحداث تغييرات بهذا الحجم في طريقة سير الكوكب، وما هي التأثيرات المتمايزة التي تمارسها على خريطة العالم. لا بد أن تتطوّر العلوم الانسانية والاجتماعية وأن تدمج المواضيع والمعارف الجديدة للإجابة على الأسئلة التي تثيرها الحقبة الجديدة: الكوارث الطبيعية والطاقة المتجددة واستنزاف الموارد الطبيعية والتصحر والإبادة البيئية والتلوث واسع النطاق والهجرة والظلم الاجتماعي والبيئي...

وما يدعو للدهشة أيضا، هو تباطؤ وضعف رد فعل المسؤولين السياسيين والمجتمعات بشكل عام. ويبين تحليل رياضي لشبكات الاقتباسات وجود توافق في المقالات العلمية التي تتناول موضوع تغير المناخ، منذ مطلع تسعينات القرن العشرين. ونظرا لتفاقم الأزمة، لا نجد مبررا لبقاء الجهود المبذولة للتخفيض في انبعاث غازات الدفيئة على هذا المستوى الضعيف. فما هي العقبات التي تحول دون الزيادة من فعالية المفاوضات الدولية؟ إلى جانب العقبات المتعمدة، لا شك أن التواصل بين العلم والمجتمع يفتقر إلى السلاسة، على الأقل في ما يتعلق بمسألة المناخ. لذلك، اعتمدت الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ مقاربة جديدة في تقريرها التقييمي السادس، حتى يسمح بتحسيس المواطنين، وليس صناع القرار فقط.

أين الحلول؟

من أهم العقبات التي تعرقل مواجهة الأنثروبوسين هي ضرورة حل مشكل حساس يتعلق بالعدالة البيئية. وسوف يؤدي تغير المناخ إلى تفاقم المخاطر الحالية وخلق مخاطر جديدة تهدد الأنظمة الطبيعية والبشرية. إلا أن هذه المخاطر موزعة بطريقة غير متساوية وتؤثر عموما بشكل أكبر على الأفراد والمجموعات الأقل حظا. ولكن، ليس من السهل إيجاد الحل المناسب لهذه المشكلة، نظرا للتباين بين البلدان من حيث مستوى التنمية والحجم والسكان ورأس المال الطبيعي وغيرها من العوامل.

© Mandy Barker/Greenpeace

أين؟ - لا أحد يحمل ساعة، عرض بصري للمسافات التي يقطعها البلاستيك وللزمن الذي يتطلّبه للاضمحلال، أُنجز ببقايا بلاستيكية تمّ جمعها في عرض الساحل الغربي لاسكتلندا، المملكة المتحدة

وعلاوة على ذلك، فإن البصمة البيئية للإنسان تتجاوز بالفعل بنسبة 50% قدرات الكوكب التجديدية والاستيعابية، كما يعيش 80% من سكان الأرض في بلدان ذات قدرة بيولوجية أقل من بصمتها البيئية. ولا يزال لدى بلد مثل البرازيل (وبلدان أخرى في القارة الأمريكية) فائض كبير في القدرة البيولوجية، على الرغم من أنه يستهلك 1،8 من موارد الكوكب. إلا أن في هذا البلد، 26% من انبعاثات غازات الدفيئة هي ناتجة عن إزالة الغابات. ويأتي جزء كبير من بصمته البيئية من تصدير منتجات أولية يعود مصدرها إلى حد كبير من إزالة الغابات. ويسعى النظام التنافسي الذي تحكمه العولمة إلى التزود بأقل تكلفة، مشجعا على الاستغلال المفرط للموارد الطبيعية في العديد من البلدان والاستيلاء على الأراضي في بلدان أخرى.

لو كان في استطاعتنا، بدءا من اليوم، إلغاء انبعاثات ثنائي أكسيد الكربون كليا في البلدان ذات الدخل المرتفع، فإن هذا لن يقلص بما فيه الكفاية من البصمة الكربونية العالمية لتبقى ضمن الحدود التي يفرضها المحيط الحيوي حتى عام 2050. وبعبارة أخرى، بغض النظر عن الفوارق الكبيرة على المستوى الاقتصادي والموارد الطبيعية، ينبغي على جميع البلدان أن تسعى جاهدة لمعالجة مشكل الأنثروبوسين الأكثر إلحاحا وتخفيض انبعاثات غازات الدفيئة بصفة جذرية.

ولكننا هذه المرة نجد أنفسنا في طريق مسدود، يظهر من جديد في جميع المفاوضات الدولية: «لعبة إلقاء اللوم» هذه التي تجعل الدول مترددة في الالتزام حتى لا يتضرر نموها الاقتصادي وفرص الشغل التي توفرها، وحتى لا تعرقل المصالح النافذة. ويكمن الحل الذي تم التوصل إليه في اتفاق باريس، المبرم في 22 أبريل 2016، في طلب التزامات طوعية، بدلا من فرض معايير محددة على المستوى العالمي. وهذا يعني أن تتعهد كل دولة بتحقيق أهداف لتخفيض انبعاثاتها وفقا لما تعتبره ناجعا.

وقد ساعد هذا النهج على كسر الجمود والتمكين من تنفيذ الإجراءات، ولكنه خلق أيضا تشابكا في معايير التقييم، عقّد عملية المقارنة بين الجهود الوطنية. ومن ناحية أخرى، على الرغم من طابعها العالمي، لا تنص هذه المعاهدة الدولية على فرض عقوبات ضد الدول التي لا تحترم التزاماتها. وهذه علامة على الحوكمة الضعيفة لمسألة المناخ التي، نظرا لحرمانها من مؤسسة مكلفة خصيصا بهذا الأمر، لم تنجح في تجاوز المصالح الاقتصادية للدول والمؤسسات الاقتصادية.

لا تحتل المشاكل البيئية الجسيمة للأنثروبوسين، المدفونة تحت التناقضات والمعضلات والجهل، الأولوية المطلوبة على جداول أعمال المجتمعات. كل شيء يمر وكأن البشرية، واهنة القوى، تنتظر نهاية الفيلم واللحظة التي سيأتي فيها الأبطال لإصلاح كل شيء، ونكون حينها جميعنا سعداء إلى الأبد.

ليز رجان إيسبرنر (البرازيل) هي خبيرة اقتصادية وباحثة رئيسية في *المعهد البرازيلي للمعلومات في العلوم والتكنولوجيا* وأستاذة في برنامج ماجستير علوم المعلومات (الجامعة الاتحادية في ريو دي جانيرو بالاشتراك مع المعهد البرازيلي).

فيليب لينا (فرنسا)، متخصص في الجغرافيا وعلم الاجتماع، وباحث فخري في *معهد الأبحاث من أجل التنمية* بفرنسا وفي *المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي* بباريس

البشرية

قوة جيولوجية

© Gideon Mendel (gideonmendel.com/submerged-portraits)

فرانشيسكا شاغاس دوس سونتوس في ريو برانكا، البرازيل، مارس 2015. صورة من مجموعة الصور المغمورة، وتشكل أحد الأجزاء الأربعة من مشروع عالم يغرق الذي أطلقه المصوّر الجنوب أفريقي جيديون ماندال للتذكير بضعفنا أمام الاحتباس الحراري عبر تجارب شخصية للضحايا

ديباش شاكرابارتي يجيب عن أسئلة شيراز سيدهفا

أتاح التقدم التكنولوجي الحديث للنوع البشري أن يزدهر، ولكنه دفع بنا خارج ساحة التطور الداروينى. لقد أصبحت البشرية قوة جيولوجية حقيقية قادرة على تأخير حقبة العصر الجليدي وعلى التسبب في انقراض كبير آخر في غضون 300 إلى 600 سنة المقبلة. هل يمكننا تغيير مسار الأمور؟ نعم، على الرغم من صعوبة الأمر، حسب تقدير المؤرخ ديباش شاكرابارتي.

تقول إن إسناد أسباب تغير المناخ إلى الجنس البشري يعني نهاية التمييز القديم بين التاريخ البشري والتاريخ الطبيعي، وهو تمييز طالما دافعت عنه النزعة الإنسانية. ماذا تقصد بالضبط؟

حتى زمن قريب، كنا نعتبر تاريخ البشرية فقط من منظور التاريخ الموثق الذي يعود إلى بضعة آلاف من السنين، أو أكثر من ذلك بقليل إذا ما احتسبنا عصور ما قبل التاريخ. لكن علم تغير المناخ أجبرنا على التفكير في المكانة التي يحتلها البشر، منذ ظهوره، في تاريخ كوكب الأرض. وفعلا، كان علينا أن نفهم كيف تطورت مكانته خلال ما يقارب 600 مليون سنة، مع النجاح في الحفاظ ليس فقط على المناخ الذي يناسبنا، ولكن أيضا على غلاف جوي يتألف من 21٪ من الأكسجين.

وكلما تقدمت في قراءاتي العلمية بشأن تغير المناخ، بما في ذلك الجيولوجيا والبيولوجيا، كلما أدركت مدى تأخر ظهور الجنس البشري في تاريخ التطور. هذا ليس من قبيل الصدفة، لأن المخلوقات المعقدة مثل البشر لا يمكن أن تظهر إلا في وقت متأخر جدا. لقد أنتج الكوكب الحياة، ثم تغير كي يستوعب أشكال الحياة الأخرى المعقدة والمتعددة الخلايا. لقد زعزعت هذه الملاحظة عاداتي كمؤرخ مختص في العصر الحديث وجنوب آسيا وفي الفترة الإستعمارية. كنت معتادا على دراسة عالم يبلغ من العمر 500 سنة على الأكثر. لكن الإعلان عن تغير المناخ قد غير كل شيء.

مثل العديد من المؤرخين، كنت أرى الطبيعة وكأنها خلفية لركح مسرحي يتقمص فيه البشر الشخصيات الرئيسية. إن الفرضية التي يعتمدها الكثيرون منا في أبحاثهم – أن ما يهم في تاريخ البشر هو ما يفعلونه مع بعضهم البعض – لا تبدو خاطئة، ولكنها محدودة بكل تأكيد.

إن التاريخ إجمالا يحكي قصتين: كيف تحرر البشر من القيود التي تسلطها عليه الطبيعة والظروف الطبيعية، وكيف فهم أن عليه التحرر من بطش غيره من البشر.

وفي النهاية، أدركت أن تاريخ تطورنا لعب دورا رئيسيا، بما في ذلك خلال التاريخ الحديث. ومن ذلك أنه لا يمكن لأي إنسان أن يصنع أي شيء قابل للاستعمال دون أن يفترض أن لدينا إبهاما متعارضا مع الأصابع الأخرى. ولكن هذا الإبهام المتعارض، الذي هو ثمرة تطور بطيء جدا، يعتبر عموما أمرا مفروغا منه. يدور حديثنا حول نوع السيوف التي أنتجها المغول، أو نوع الخناجر المستخدمة في بغداد، كما لو كانت هناك دائما يد بشرية بإمكانها حملها أو التحكم فيها. لكن هذه اليد هي أيضا تتويج لتاريخ طويل، ألا وهو تاريخ التطور.

ماذا تقصد عندما تقول أن البشر أصبح من هنا فصاعدا «قوة جيولوجية»؟

اليوم، تتسبب تصرفات البشر في تغير مناخ الكوكب بأسره. أصبحنا كلنا جميعا قوة قادرة بما فيه الكفاية على تغيير الدورة المعتادة للفترات الجليدية والفترات ما بين الجليدية، التي كانت موجودة بثبات منذ 130.000 عاما. لقد اكتسبنا بطريقة ما، من خلال التقدم التكنولوجي والنمو الديموغرافي والقدرة على الانتشار في جميع أنحاء العالم، صفة القوة الجيولوجية.

إلى حد الآن، كنا نعتبر البشر فاعلين بيولوجيين، نظرا لأننا نؤثر في بيئتنا وعلى أنفسنا، وننقل الأمراض، وما إلى ذلك. ولكن يجب علينا الآن أن نتبنى منظورا أوسع من ذلك بكثير، لأننا بصدد تغيير وجه العالم. وليس فقط في الظاهر: تمثل السواحل البحرية إحدى الأماكن التي غيرها البشر، وسوف تترك هذه التغييرات آثارا دائمة – بسبب الصيد في أعماق البحار والتعدين، الخ. لم يعد بإمكاننا الفصل بين التحرك البيولوجي للإنسان وتحركه الجيولوجي.

© Gideon Mendel

جوزيف وأندورانس آدم مع طفليهما، ولاية بايلسا، نيجيريا، نوفمبر 2012

واقترح العديد من المؤرخين المختصين في الفترات طويلة المدى، أن الإنسان، بعد أن تطور دماغه وابتكر الوسائل التكنولوجية، أخذ ينمو بسرعة أعلى بكثير من سرعة التطور. وهذا يعني أنه لو اكتسب الإنسان تقنيات الصيد في أعماق البحار على الوتيرة المعتادة للتغيّرات التطورية، لكان للسمك الوقت الكافي ليتعلم كيفية تجنب شباك الصيد. لكن سرعة نمو الإنسان الفائقة لم تتح الفرصة للنظام البيئي أن يتطور بنفس الوتيرة. وفي هذه الفكرة ما يبهر العقل: لقد قام جنس واحد من إقصاء نفسه من مسرح التطور الداروينى. وهذا له تأثير كبير على تاريخ الحياة حتى أن العديد من علماء الأحياء يعتقدون بأن البشر سوف يتسبب في الانقراض العظيم السادس في غضون 300 إلى 600 سنة القادمة.

هل يمكن أن تفسر نظريتك حول ضرورة التوفيق بين تاريخ رأس المال وبين تاريخ الجنس البشري؟

إن الباحثين الذين يهتمون بالرأسمالية لا يكترثون بالبيولوجيا التطورية. وإن فعلوا ذلك، علّهم يكتشفون نوعا يسمى الانسان العاقل (هومو سابينس)، كان يوما ما قادرا على ابتكار مجتمع صناعي حديث – أو إن أردتم المجتمع الرأسمالي– أسس عليه استراتيجيته للسيطرة على الكوكب بأسره والهيمنة على الحياة فيه.

ولم يكن انتشار البشر على سطح الأرض ممكنا إلّا في بضعة آلاف السنين الماضية. الرأسمالية ليست قديمة مثلنا، ولكن إذا نظرنا إلى ما حدث مع وصول السفن الكبيرة ومن بعدها البواخر، يدرك المرء أن القارة الأوروبية هي من أرسلت شعبها الى جميع أنحاء العالم. وبالتالي، ألا يصح القول بأن الرأسمالية كانت استراتيجية استخدمت للسيطرة على الكوكب؟ وهذا يعني أنه يجب علينا أن نفرّق بين الأغنياء والفقراء، وإن كانت المجموعتان تنتميان إلى نفس النوع.

© Gideon Mendel

أنشالي كوياما في حيّ تاويواتانا، بنكوك، تايلاند، نوفمبر 2011

وجه لك البعض من زملائك انتقادات لاعتبارك أن «الفقراء والأغنياء ساهموا بنفس القدر في هذا التاريخ المشترك لتطور البشرية» . ما هو ردك؟

كنت في حيرة أمام رد فعل أندرياس مالم تجاه البعض من مقترحاتي التي لم أكن أتخيل أنها قد تثير مشكلة، بقدر ما تحير هو بسبب تصريحاتي. أعتقد أن طريقته في تفسير كلامي في مقاله (انظر ص. 23) يمكن أن تؤدي إلى شيء من الإرباك، لأنه يعطي انطباعا بأنني اقترحت أن الفقراء أيضا مسؤولون مباشرة على انبعاثات ثنائي أكسيد الكاربون على حد السواء مع الأغنياء.

لم أدّع أبدا مثل هذ الأمر، لأن الجميع يعلم أن الفقير لا يصدر غازات الدفيئة بنفس قدر ما يصدره الغني، وأن عددا قليلا فقط من البلدان هم المسؤولون عن معظم انبعاثات هذه الغازات الصادرة عن البشر.

بالنسبة لي، ليس هذا هو السؤال. النقطة التي أريد التأكيد عليها هي التالية: لمّا يدافع الهنود والصينيون عن استخدام الفحم وغيره من أنواع الوقود الأحفوري (رغم أن هذا الاتجاه يتضاءل إلى حد ما بسبب انخفاض أسعار مصادر الطاقة المتجددة) من أجل إخراج الناس من الفقر، فإن منطقهم لا يخلو من المعنى، اذا أخذنا في الاعتبار أن هذه البلدان ذات كثافة سكانية عالية وأن عدد الفقراء المعنيين هو فعلا مرتفع جدا.

إن تاريخ البشر، كما اقترحت، ينقسم إلى تاريخين متزامنين: هناك تاريخ الحداثة، وبرامج الصحة العامة، وسبل العلاج الحديثة مثل المضادات الحيوية (التي تعتمد جزئيا على إنتاج الوقود الأحفوري)، والقضاء على الأمراض المتفشية والأوبئة شديدة العدوى، والمجاعات وما إلى ذلك، وهناك تاريخ الجنس البشري. كيف ننكر أن الفقراء ينتمون هم أيضا إلى نوع الانسان العاقل (هومو سابينس)؟ أليس لدى الفقراء أيضا إبهام متعارض؟ أليس لهم مكانهم في تاريخ التطوّر؟

لم توجد أبدا في تاريخ الحياة البيولوجية على الأرض أنواع أخرى غير البشر أثبتت قدرتها على استعمار الكوكب بأسره (أعني هنا الإستعمار الذي حصل منذ آلاف السنين، قبل ظهور الفقر الشامل) والوصول إلى قمة السلسلة الغذائية في مثل هذا الوقت القصير (نسبيا بالمقارنة مع التاريخ التطوري). إذا استطعنا تحسين حياة سبعة – وغدا تسعة – مليارات نسمة من سكان هذا الكوكب، فسوف يزداد الضغط على المحيط الحيوي، وهذا شيء مؤكد. ولكن هذا ليس سببا لعدم تحسين حياة الفقراء.

لقد حاولت أن أظهر في أعمالي عواقب رغبة غالبية البشر في التصنيع والعولمة. فلنأخذ على سبيل المثال جواهر لال نهرو (الهند)، وجمال عبد الناصر (مصر)، وجوليوس نيريري (تنزانيا) وغيرهم من قادة العالم الثالث في السنوات ما بين 1950 و1960. جميعهم أرادوا تحديث بلدانهم، ليس لمجرد انبهارهم بالتكنولوجيا، ولكن بمنظور أخلاقي. إن أراد نهرو بناء السدود، فلأنه كان يريد التمكن من إنتاج المزيد من المواد الغذائية وحماية السكان من الموت جوعا.

منذ السبعينات، كان الفكر السياسي يتمحور حول حقوق الإنسان وازدهار الأفراد، مهما كان عددهم. وجاء تغير المناخ والمقترحات العلمية المرتبطة به في الوقت الذي أصبحنا نقدِّر فيه هذه الأمور التي يقول عنها علماء المناخ أنها قد تهدد وجودنا على المدى الطويل.

إلى أي مدى تعتبر العولمة مسؤولة عن كل هذا؟

لقد مر الآن ثلاثون أو أربعون عاما على دخولنا في عصر العولمة، بفضل تطوير تكنولوجيات الاتصال. ونحن جميعا مبتهجون بامكانية التواصل يوميا مع أحبائنا في جميع أنحاء العالم، أو بإمكانية التنقل في غضون ساعات قليلة على متن الطائرة لاستكشاف بلدان أخرى في الجانب الآخر من العالم، أو للقيام بأعمال تجارية أو لزيارة الأقارب أو الأصدقاء.

ولكن تاريخ العولمة يبين لنا أننا قد أصبحنا متعلقين حقا بهذا النمط الذي اتضح أنه السبب المحتمل لنهايتنا الجيولوجية، والذي يتمثل في قدرتنا على التأثير بشكل سلبي في العالم على نطاق واسع. إلا أننا في حياتنا اليومية، نرى فيه شرطا من شروط الازدهار البشري.

من جهة، يوجد في كياننا ما يسمى بالجمود الطبيعي،المتولد عن الارتباط التاريخي بالمؤسسات والهياكل الأسرية والعولمة. ومن جهة أخرى، نحن قادرون على التفكير فقط في مستقبلنا القريب: يفكر البشر على مدى 70 إلى 80 سنة، أي ما يعادل جيلين أو ثلاثة أجيال على الأكثر. ولهذا السبب نجد صعوبة كبيرة في التجمع وتنظيم أعمالنا بصفة متناسقة ضد تغير المناخ. ونشاهد إلى أي درجة تتعثر المفاوضات حول تغير المناخ – تحت مظلة *اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ*. وذلك بالإضافة إلى التزام كل دولة ببرنامجها التنموي على الصعيد الوطني.

الآن وقد أدركنا أن ليست لنا سيادة على الطبيعة ولا نمتلكها، ماذا يبقى لمخّيلتنا؟

علينا أولا وقبل كل شيء التخلي عن الأساطير التي تدّعي التفوق البشري: إن العهد الذي كنا نتصوّر فيه أن البشر يتحكمون في الطبيعة قد ولّى. ونحن نعلم الآن أن هذا الكوكب، ولحسن حظنا، قد سمح بتطور الحياة بأشكال معقدة. وكما أصبحنا نعرف أن هناك نظاما مناخيا عالميا، وأن طرق سير الكوكب على المستويات الجيولوجية والكيميائية هي ضرورية لضمان بقاء الإنسان وبقاء الحياة المعقدة. على سبيل المثال، عندما يتم إفساد التربة، فإنها تحتاج لملايين السنين كي تتجدد.

لذلك، علينا أن نقلل من التبذير وأن نجد صيغة للعيش حيثما كنا بشكل عقلاني وذكي، وأن نكف عن الاستهلاك المفرط. وعلينا أن نجد طرقا للحد من النمو السكاني بصفة عقلانية وديمقراطية وغير عنيفة، ومتناسبة مع احتياجات الفقراء.

ويبقى السؤال المطروح في كيفية تحقيق ذلك. من الصعب جدا في عالمنا اليوم مطالبة الناس بالتوقف عن السفر، أو عدم استخدام فوائد التكنولوجيات الجديدة مثل الهواتف الذكية التي نعرف أنها تستنفذ أنواعا من التربة النادرة. المهم هو أن نعترف بوجود تناقضات بين رغباتنا العاجلة ومعارفنا حول تغير المناخ.

نحن بحاجة إلى نوع مختلف من المجتمع: لا يمكننا الحفاظ على الشكل الحالي للرأسمالية طوال 100 أو 200 سنة أخرى. إن النهج الصحيح يتمثل في إعادة تثقيف كل واحد منا على مستوى طريقة الاستهلاك و التعامل مع الرغبات. وتقع على عاتقنا مسؤولية بث هذه الرسالة في الجامعات والمدارس.

لقد صرحت بأن كل أزمة هي أيضا فرصة جيدة لاستعادة الإبداع.

كلما ازدادت الأزمة سوءا، كلما ولّدت حلولا أكثر إبداعا. أعتقد أننا سنشهد صعود قادة يتمتعون بالكاريزمية سيكونون قادرين على كسر أغلال الاستهلاك المفرط وعلى إلهامنا من جديد، كما فعل من قبل المهاتما غاندي.

لوكاس ويليامس في ميدان الصيد لاوشي بلانتايشن بكارولين الجنوبية، الولايات المتحدة، أكتوبر 2015

© Gideon Mendel

ديباش شاكرابارتي مؤرخ أسترالي أمريكي من أصل هندي، حاصل على الكرسي الفخري في التاريخ لورانس أ. كيمبتون لجامعة شيكاغو، في الولايات المتحدة. وقد نُشرت له أعمال عديدة، من بينها، *أقلمة أوروبا: الفكر ما بعد الاستعمار والاختلاف التاريخي* (2000، 2009)، و «*مناخ التاريخ: أربعة فرضيات*»، التحقيق النقدي (2009).

الأعباء الثقيلة للمحيط التكنولوجي

أحفور تكنولوجي (سامسونغ أ 570)، هاتف أحفوري مزعوم، نحته على صخرة الملكيت الفنان البلجيكي مارتان فاندن آيند في جمهورية كونغو الديمقراطية، سنة 2015

© Maarten Vanden Eynde (Courtesy of the artist and Meessen De Clercq)

بقلم يان زالاسيوفيتز

في لمحة بصر بالمقاييس الجيولوجية، ظهر مجال جديد يستمر في النمو على وتيرة متسارعة، يناهز وزنه 30.000 مليار طن. يدعى هذا المجال «المحيط التكنولوجي» ويشمل كتلة من ثاني أكسيد الكربون المنبثقة عن النشاط الصناعي والمنبعثة في الجو – تمثّل وحدها ما يعادل 150.000 هرم من الأهرامات المصرية!

يمكن وصف كوكب الأرض على أنه يتشكل من مجالات بيئية مختلفة. فهناك الغلاف الصخري المتكون من الطبقات الصخرية السفلى، والغلاف المائي من المساحات المغطاة بالمياه، والغلاف الجليدي ويضمّ المناطق القطبية وقمم الجبال الثلجية. أما الغلاف الجوي فهو الهواء الذي نتنفسه. ونحن أيضا جزء من المحيط الحيوي وننتمي الى الكائنات الحية المتواجدة في كوكب الأرض. وكانت كل هذه المجالات البيئية قائمة، بشكل أو بآخر، طوال فترة وجود الكوكب أي منذ حوالي 4،6 مليار سنة. وها أن برز في الفترة الأخيرة مجال بيئي جديد – ألا وهو المحيط التكنولوجي.

إن المحيط التكنولوجي بالمعنى الذي نعرفه، هو مفهوم تصوّره عالم الجيولوجيا المهندس الأمريكي *بيتر هاف*، وهو أستاذ فخري في جامعة ديوك بالولايات المتحدة. ومثل ما حدث مع مفهوم الأنثروبوسين (عصر هيمنة الإنسان)، يحظى مفهوم المحيط التكنولوجي باعتراف متزايد، وعلى سبيل المثال فهو يحتل مركزا محوريا في مشروع ضخم بعثته حديثا *بيت الثقافة العالمية*، المركز الدولي للفنون المعاصرة في برلين بألمانيا.

وكما حصل مع الأنثروبوسين، يثير مفهوم المحيط التكنولوجي جدلا بسبب الدور الذي ينسبه للبشر والقيود التي يفرضها عليه. فهو يوحي بأن حريتنا الجماعية في قيادة نظام كوكب الأرض هي أقل بكثير مما نتصوّر.

ويشمل المحيط التكنولوجي جميع المواد التكنولوجية التي أنتجها البشر، دون أن ينحصر فيها لأنه ليس مجرد مجموعة من الأجهزة التكنولوجية يتفاقم حجمها يوما بعد يوم، بل هو نظام في حد ذاته. ولتوضيح هذا التمييز الحاسم، يجدر مقارنته بمفهوم ثابت وهو المحيط الحيوي. ان عبارة "المحيط الحيوي" من صياغة العالم الجيولوجي النمساوي إدوارد سويس في القرن التاسع عشر، ثم قام العالم الروسي فلاديمير فيرنادسكي بتطويرها في القرن العشرين لتصبح مفهوما يدلّ ليس فقط على جملة الكائنات الحية المتواجدة على الأرض، بل ويشمل كذلك تفاعلها مع الهواء والماء والتربة التي تغذي الحياة العضوية، والشمس التي تمنحها جزءا هاما من طاقتها. لذلك يدلّ مفهوم المحيط الحيوي على ما أبعد من مجموع مكوّناته، لأنه مرتبط وثيق الارتباط بالمجالات البيئية الأخرى للكرة الأرضية، بالإضافة إلى ديناميته الذاتية وخصوصياته الظاهرة.

التلاعب بالطبيعة

والأمر كذلك بالنسبة للمحيط التكنولوجي. فهو لا يتكوّن فقط من الآلات، بل يشملنا أيضا نحن معشر البشر، اضافة الى النظم الاجتماعية والمهنية التي نستعملها في تفاعلنا مع التكنولوجيا: المصانع، والمدارس، والجامعات، والنقابات، والبنوك، والأحزاب السياسية والإنترنت. كما أنه يحتوي على الحيوانات الأليفة التي نقوم بتربيتها بأعداد هائلة لتغذيتنا، والنباتات التي نزرعها لتوفير قوتنا وقوت حيواناتنا، وأيضا الأراضي الزراعية التي تمّ تعديل حالتها الطبيعية بصفة جذرية لتحقيق هذه الأهداف.

كما يشمل المحيط التكنولوجي الطرق، والسكك الحديدية، والمطارات، والمناجم والمحاجر، وحقول النفط والغاز، والمدن، والمنشآت المائية وأحواض التخزين. وقد ولّد المحيط التكنولوجي كميات هائلة من النفايات – بدءا بمواقع دفنها وصولا الى تلوث الهواء والأراضي والمياه. من المؤكد أنه وجد في تاريخ البشرية شكل أوّلي للمحيط التكنولوجي، ولكنه لم يتمثل خلال فترة طويلة الّا في أجزاء معزولة ومتناثرة، دون أهمية كبرى على الكوكب. أما اليوم وقد تحوّل الى نظام عالمي مترابط، فهو يشكل تطورا جديدا وحاسما بالنسبة لكوكبنا.

ما هو حجم المحيط التكنولوجي؟ يمكن قياسه بصفة تقريبية باحتساب كتلة مكوّناته المادية المتمثلة في المدن وكميات التربة التي تم استخراجها ونقلها لبناء أسسها، وفي الأراضي الزراعية، والطرق والسكك الحديدية وما إلى ذلك. ويقدّر وزن المواد التي نستخدمها أو التي تم استخدامها ورميها بحوالي 30.000 طن لمجمل مساحة الأرض.

كما أن العناصر المادية المكوّنة للمحيط التكنولوجي في غاية التنوّع. لقد صنع أسلافنا في عهود تعود الى ملايين السنين، أدوات بسيطة مثل الفؤوس الحجرية. ولكن، اعتبارا من الثورة الصناعية، وبالخصوص منذ تصاعد سرعة النمو السكاني والتصنيع والعولمة في منتصف القرن العشرين، نشهد انتشارا مدهشا للآلات والأدوات المصنوعة، بشتى الأنواع. كما تتطوّر التكنولوجيا بسرعة متفاقمة ومستمرّة. ولم يشهد أسلافنا في مرحلة ما قبل الطور الصناعي، سوى تغييرات تكنولوجية قليلة من جيل إلى آخر. أما اليوم، على سبيل المثال، ففي غضون جيل بشري واحد، عمّ استخدام الهواتف الجوالة كل الفئات مهما كانت أعمارها.

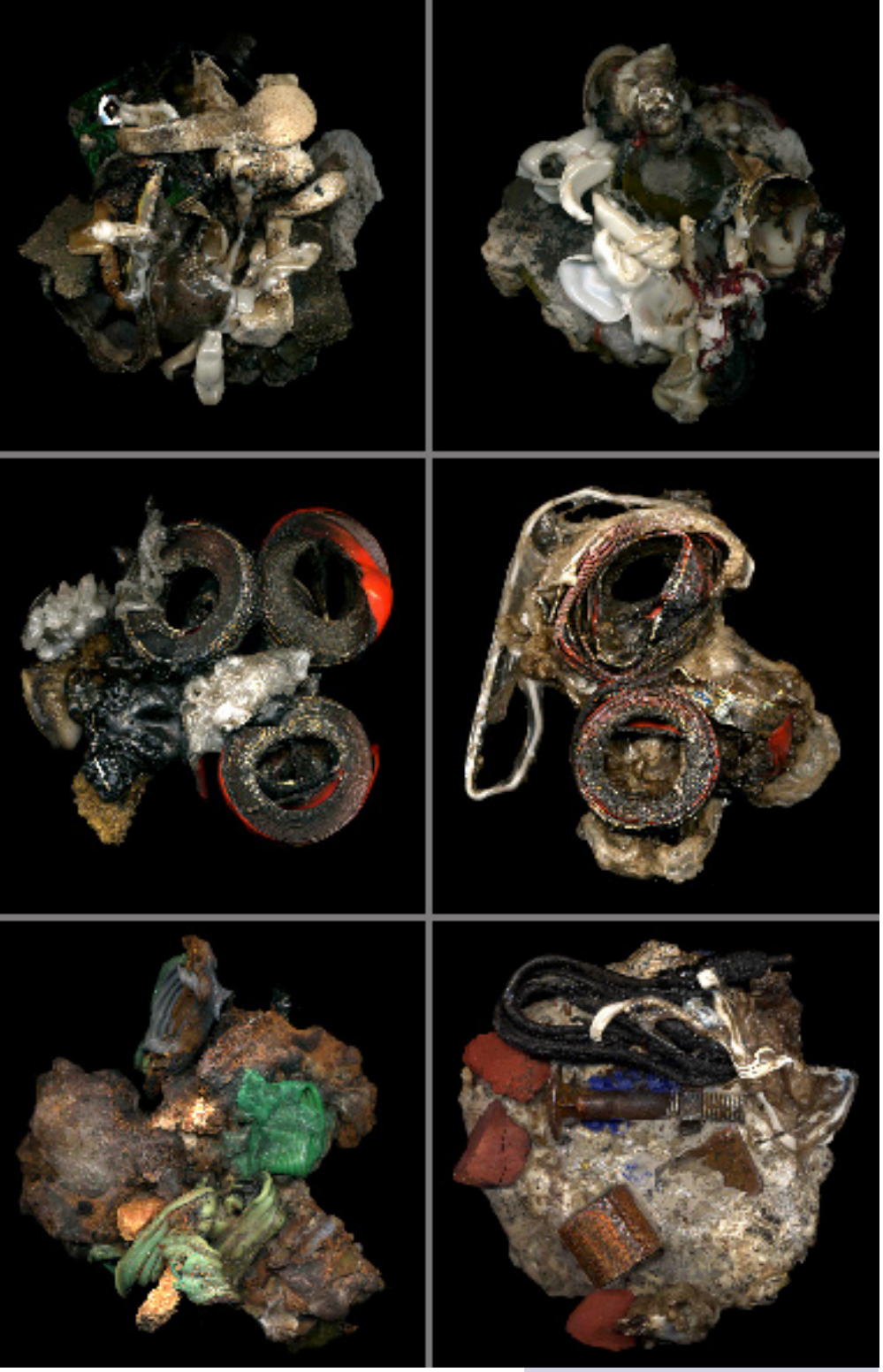

© Jean-Pierre Brazs 2015 (jpbrazs.com)

بلاستيغلوميرا (صخر مختلط بالبلاستيك)، تقليد للمواد الجيولوجية المستقبلية، أُنجزت في إطار مصنع صخور المستقبل الذي أسسه الفنان الفرنسي جون-بيار براز

أحافير المستقبل

وقد يساعدنا على بلورة الطبيعة الغريبة لهذة الظاهرة الجديدة التي اجتاحت عالمنا، اعتبار المنتجات التقنية – وفي مقدمتها الهواتف الجوالة – بمثابة الأحافير التقنية الشبيهة بالأحافير في المجال الجيولوجي، نظرا لأنها مصنوعة من مواد حيوية صلبة ولا تنحل بسهولة. وسوف تشكل أحافير المستقبل المكونة لطبقات الأنثروبوسين، أي عصر هيمنة الإنسان.

لا أحد يعرف عدد أصناف الأحافير التقنية حاليا، لكن حسب التقديرات، يحتمل أن يكون عددها قد تجاوز عدد أصناف الأحافير المعروفة. وفي ذلك وجه تشابه مع التنوّع التكنولوجي الحديث الذي فاق التنوّع البيولوجي الحديث. كما أن عدد أنواع الأحافير التقنية في تزايد مستمر، حيث أن سرعة التطور التكنولوجي فاقت بكثير سرعة التطور البيولوجي.

ان الطاقة الضرورية للمحيط الحيوي آتية حصريا من الشمس، أما المحيط التكنولوجي فهو يعتمد لا فقط على الطاقة الشمسية – وعلى الموارد المتجددة الأخرى مثل الطاقة الريحية – بل هو يبقى بالأساس معتمدا على الطاقة المستمدة من المحروقات مثل النفط والفحم والغاز. وفي الواقع، تتكون مصادر الطاقة غير المتجددة هذه من أشعة الشمس التي تجسّمت في أعماق الأرض طوال مئات الملايين من السنين، ويتمّ إهدارها في غضون بضعة قرون.

لقد استخدم البشر مصادر الطاقة مثل الطواحين المائية لآلاف السنين، لكن كميات الطاقة الضرورية الآن لتزويد المحيط التكنولوجي لا تترك أي مجال للمقارنة مع الماضي: إن كميات الطاقة التي استهلكها البشر منذ منتصف القرن العشرين تفوق الكميات التي تم استهلاكها خلال فترة الهولوسين أي على مدى أحد عشر ألف سنة.

تحت أكوام من النفايات

وهناك نقطة اختلاف جوهرية بين المحيط التكنولوجي والمحيط الحيوي. لقد نجح المحيط الحيوي في إعادة تأهيل المواد التي تكونه، وذلك هو سبب استمراره على الأرض طوال مليارات السنين. أمّا المحيط التكنولوجي، فهو غير قادر على إعادة تأهيل المواد. هناك أمثلة صارخة تدل على هذا العجز منها جبال البلاستيك المتراكمة في البحار وعلى الشواطئ، في كل أنحاء العالم. وتوجد نفايات خفية عديمة اللون والرائحة مثل ثاني أكسيد الكربون الناجم عن المحروقات الأحفورية. لقد بلغت كتلة ثاني أكسيد الكربون المنبعثة في الجو جراء النشاط الصناعي حجما هائلا يقارب ألف مليار طن، أي ما يعادل حوالي 150.000 من الأهرامات المصرية. وفي حال عدم التحكم فيه، سوف يشكل هذا النمو السريع للنفايات تهديدا لبقاء المحيط التكنولوجي وحياة البشر.

المحيط التكنولوجي هو منبثق من المحيط الحيوي، وهو نظام معقد له ديناميكيته الخاصة. ومن أهم العوامل التي تسببت في ظهوره قدرة الجنس البشري على تكوين هياكل اجتماعية متطورة، وصنع الأدوات واستعمالها. ويوضح المهندس هاف أنه مع ذلك، ليس البشر هم الذين ابتكروا المحيط التكنولوجي ولا هم الذين يتحكمون في ادارته، بل البشر من بين مكونات هذا المحيط، مرغمون على السعي من أجل ثباته لأنه يضمن بقاء نسبة هامة من البشرية على قيد الحياة، بفضل ما يوفره من غذاء وسكن وموارد أخرى. وقد أدى تطور هذا المحيط الى نمو عدد سكان الأرض من بضعة عشرات الملايين – وهم أسلافنا الذين كانوا يقتاتون من الصيد والقطف – إلى 7،3 مليار نسمة. إن مجرد ابتكار تكنولوجي واحد – مثل الأسمدة الاصطناعية المنتجة حسب طريقة هابر-بوش – تمكّن من المحافظة على حياة حوالي نصف سكان المعمورة.

ولا يعود تطوّر المحيط التكنولوجي إلى إرادة الإنسان أو قدرته على التحكم فيه، وإنما إلى ظهور ابتكارات جديدة نافعة. وأصبحنا نشهد تطورا مشتركا بين النظم البشرية والنظم التكنولوجية.

ظروف عالمية متغيرة

وقد يجوز اعتبار المحيط التكنولوجي بمثابة عنصر طفيلي دخيل على المحيط الحيوي، أدى إلى زعزعة قابلية الأرض لإيواء الأحياء، مع عدد من العواقب الواضحة، منها: تسارع وتيرة انقراض أنواع النباتات والحيوانات، وتغيرات في المناخ وفي التركيبة الكيميائية للمحيطات وما ينجر عنها من أضرار على المجموعات البيولوجية الكائنة. وقد تؤدي هذه التغييرات بدورها إلى إفساد سيرورة المحيط الحيوي والإساءة بالسكان. والأفضل أن يحاول البشر توجيه تنمية المحيط التكنولوجي نحو مستقبل مستدام. علما وأن ليس لديه أي خيار سوى الإبقاء على سير المحيط التكنولوجي لأنه أصبح ضروريا للوجود.

إن تحديد هامش الحرية، في هذا السياق، من أجل العمل الاجتماعي-الاقتصادي والسياسي الفعال، هو أحد التحديات التي يطرحها علينا تطور المحيط التكنولوجي. والخطوة الأولى هنا هي في كيفية أن نفهم على نحو أفضل هذه المرحلة الجديدة غير العادية من تطور كوكبنا حيث لا يزال هناك الكثير مما ينبغي عمله.

يان زالاسيوفيتز (المملكة المتحدة) هو عالم جيولوجي بريطاني من أصل بولندي، وأستاذ علم الأحياء في العصور القديمة بجامعة ليستر. وقد عمل كجيولوجي ومختص في العصور الحجرية القديمة في المعهد البريطاني للدراسات الجيولوجية، ويرأس منذ سنة 2009 فريق عمل حول الأنثروبوسين التابع *للجنة الدولية المعنية بالطبقات الأرضية*.

الضفدعة الصغيرة التي تريد

استرجاع بريقها

بقلم كارلا جيميناز كومري

يرى العديد من العلماء في الاندثار الهائل لعدة أصناف من الضفادع في أمريكا الوسطى رمزا للانقراض السادس ومظهرا من مظاهر دخولنا عصر الأنثروبوسين الذي، حسب البعض، سوف يمحق من خارطة العالم نسبة كبيرة من الثدييات، والكائنات البرمائية، والشعب المرجانية والعديد من الأجناس الأخرى. في باناما، دخل العلماء والمسؤولون الوطنيون في سباق مع الزمن للحيلولة دون فناء الضفدعة الذهبية، ذلك الجنس الأسطوري. و بعد التحقيق في الأمر، تبيّن أن الإنسان هو المذنب، بما أنه هو الذي جلب إلى أمريكا الجنوبية فطرا مكتسحا مُضرّا جدا بالبرمائيات.

هناك أسطورة تعود إلى المرحلة السابقة لحلول الإسبان، نابعة من قلب الأراضي الوسطى لباناما، تقول إن الضفدعة الذهبية طالع خير: فمن يُشاهدها أو يتمكّن من القبض عليها سيحظى بمصير سعيد. فكساؤها الأصفر المشرق المُوشّح بشامات بُنّية كان محطّ نشوة لدى القبائل المحلية التي كانت تعتقد بأن الجسم النحيف لهذا الحيوان البرمائي يتحوّل إلى ذهب خالص إبان مماته.

أنثى ضفدعة باناما الذهبية – واسمها العلمي أتيلوبوس زيتيكي

CC BY 2.0 photo de Brian Gratwicke

الضفدعة الذهبية، واسمها العلمي *أتيلوبوس زيتيكي*، التي تمّ اكتشافها في المناطق المجاورة لبلدة فالي دي أنتون والحديقة الوطنية ألتوس دي كامبانا، مستوطنة منذ زمن بعيد في المنطقة الوسطى للبرزخ، وكثيرا ما كانت تتردّد على الوديان والأنهار في أدغال باناما، برونقها الخاص. وقد جعلت باناما من الضفدعة الذهبية رمزا بيئيا وثقافيا، لدرجة أنها خصصت لها يوما وطنيا في 14 أغسطس من كل عام. وتتمتع الضفدعة بصيت شعبي حتى أنها تُستعمل لتزويق منتوجات الصناعات التقليدية، والحلي، ومعلقات المهرجانات، وتذاكر اليانصيب، كما تعتمد لتسمية الفنادق، والجعة المحلية والمغازات. لكن كل هذا لم يكف لحمايتها من الانقراض في الغابات البرزخية.

ويعتبر العالم البانامي المتخصص في الكائنات الزاحفة والبرمائية، روبرتو إيبانياز، وهو باحث مشارك في *معهد سميثسونيان للبحوث حول المناطق الاستوائية* في باناما، أن العلامات الأولى للانحدار تعود إلى السنوات 1993– 1996. أما عالم الأحياء البانامي أدغاردو غريفيث فهو يتذكر أنه اكتشف ضفادع في حالة احتضار في نهاية سنة 2005، خلال بعثة في المناطق المجاورة لموقع فالي دي أنتون.

كانت أسباب هلاكها مجهولة آنذاك، لكن صيحة الفزع التي أطلقها غريفيث تزامنت مع بحوث أخرى طرحت تساؤلات حول وضع هذا الكائن البرمائي. وقد تمت مشاهدة الأتيلوبوس زاتاكي (الضفدع الذهبي) لآخر مرّة في وضعه الطبيعي سنة 2007، في لقطة سريعة من مشهد قامت قناة بي.بي.سي. بتصويره في إطار شريط وثائقي من سلسلة مُخصّصة للزواحف والبرمائيات بعنوان «*لايف إن كولد بلود*» (الحياة ببرودة الدم).

المتسبب في هذه الكارثة قد يكون نوع من الفطريات يسمى *باتراتكوكيتريوم ديندروباتيديس* (ب.د)، وهي خليّة تُهدّد الكائنات البرمائية في كل أنحاء العالم إذ أنها تنقل لها عدوى *الكيتريديوميكوز*، وهو داء «يُصيب جلدة الضفادع ويُشوّه وظائفها»، حسب توصيف روبرتو إيبانياز.

ذلك أن من وظائف جلد الضفادع الحفاظ على توازن الماء والأملاح بين الجسد ومحيطه. وقد تمّ تسجيل اضطراب في نقل الشوارد لدى الضفادع المُصابة بفطريات ب.د، من شأنه أن يتسبب بالخصوص في انخفاض تمركز السوديوم والبوتاسيوم في دم الحيوان، ويؤدي إلى سكتة قلبية.

الفطر المكتسح

من أين أتى ب.د؟ الأرجح أن يكون قد أتى من أفريقيا. وهو الاحتمال الذي يميل إليه أغلب علماء الأحياء في باناما. ذلك أن خلية ب.د توُجد فعلا بشكل طبيعي في جلد الحيوان البرمائي *زينوبوس ليفيس* في أفريقيا الجنوبية، وقد تمّ استعمالها بشكل مُكثّف في اختبارات الحمل منذ السنوات 1930. وتصدير هذه الطريقة لمناطق أخرى، في وقت لم يكن يُعرف أنها ناقلة للمرض، قد يكون سبب انتشارها.

ويضيف روبرتو إيبانياز أنه من المحتمل أن يكون هذا الفطر قد انتشر بالاحتكاك بتلك البرمائيات، مُؤكّدا أن الخليّة قد تفشت في كامل البلاد وهي تُهدّد الآن أجناسا أخرى من البرمائيات. ونظرا لـ «تأثيرها الكارثي على التنوّع البيولوجي»، صنّف الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة الـ(ب.د) من بين *المائة جنس غريب مكتسح الأكثر إضرارا في العالم*. ويصفه أدغاردو غريفيث بأنه كائن عضوي «شديد التأثير، من شأنه أن يحدّ من التنوع البيولوجي، وأن يُغيّر الحركة الدموغرافية والتناسل، وأن يقضي على عناصر بعض الأجناس بنسبة 100%». هو متواجد في كل مكان، في باناما كما في بلدان أخرى من أمريكا اللاتينية.

سفينة نوح لإنقاذ البرمائيات

لا يوجد في باناما، لحدّ الآن، علاج ناجع ضد هذا المرض. ومع ذلك، لا زلنا نأمل في أن نتمكّن يوما من إعادة الضفدعة الذهبية إلى مسكنها الطبيعي. وقد بعثت الحكومة، سنة 2011، *برنامج عمل للمحافظة على برمائيات باناما* في ثلاثة محاور – البحث، المحافظة، التربية – كخطوة أولى نحو حلّ المشكلة. كما تسعى مؤسسة مركز المحافظة على البرمائيات في الفالي، التي يرأسها أدغاردو غريفيث، لحماية الضفدعة الذهبية، رغم أنه لا يمكن إطلاق سراحها في الطبيعة في هذه المرحلة. وتأوي حديقة المركز حوالي 4.500 ضفدعة، منها نحو ألف ضفدعة ذهبية.

في الطرف الآخر من البلاد، في غمبوا التي تقع على حافة غابة استوائية مفعمة بالرطوبة في المنطقة القديمة لقناة باناما، يُدير روبرتو إيبانياز *مشروع المحافظة على البرمائيات وإنقاذها*.

© Courtesy of Diario La Prensa, Panama

أثناء مهرجان الضفدعة الذهبية في باناما، الذي يُنظّم كل سنة في العاصمة مركز بونتا كوليرا ناتورال سنتر، يكتشف الأطفال البرمائيات، الرمز البيئي والثقافي للبلاد

ويهدف هذا البرنامج الذي تم بعثه خارج الموقع سنة 2009، إلى ضمان مواصلة تناسل الأجناس المُهددة بالخصوص من طرف خلية الفطر، وهو بمثابة «سفينة نوح»، يسعى فيها الباحثون جاهدين لإعادة تشكيل ثلل من الأجناس الأكثر عرضة للخطر، انطلاقا من العينات الموجودة في المركز، لحين الوصول إلى إيجاد العلاج ضد الفطر ب.د. ويأوي هذا المركز الذي يبعد مقره 32 كيلومتر عن عاصمة باناما، حوالي 1200 ضفدعة من 9 أجناس، ما عدا الضفدعة الذهبية. ويأمل روبرتو إيبانياز أن تُرسل إليه مؤسسة مركز المحافظة على البرمائيات في الفالي هذا الجنس قبل نهاية سنة 2018.

هل تسترجع الضفدعة الذهبية يوما سالف بريقها؟ يُجيب العلماء بـ«نعم» بشكل قطعي. وحتى ذلك الحين، نأمل أن تلقى الضفدعة الذهبية الحظ السعيد الذي ترمز إليه في المخيال البانامي.

> *لا زلنا نأمل في أن نتمكّن يوما من إعادة الضفدعة الذهبية إلى مسكنها الطبيعي*

كارلا خيميناز كومري (باناما) صحافية مستقلة مختصة في مجالي البيئة والثقافة. عملت لفائدة المنتظم الأممي، وكصحفية في الجريدة اليومية *لا برانسا*.

تغيّر المناخ يهدّد

بنزاعات جديدة

بقلم كيتلين إ. ويريل وفرانشيسكو فيميا

إن تأثير تغيّر المناخ في المشهد الطبيعي العالمي من شأنه أن يحدث تحويرا على مستوى الجغرافيا السياسية وأن يزعزع استقرار المناطق الضعيفة، مثل القرن الأفريقي. وقد يؤدي إلى المساس من قدرة الدول على إدارة شؤونها وإلى التسبب في اندلاع صراعات لم نكن نتصوّر وقوعها. وخلافا لعوامِل خطر أخرى على الأمن الدولي، يعتبر تغيّر المناخ قابلا لوضع أمثلة نموذجية توقعية موثوقة للغاية. لكن، بين التوقّع والتأهب، يبقى لنا أن نخطو خطوة جبارة.

© UNphoto/Tim McKulka

إن الوتيرة الحالية لتغير المناخ ـ ارتفاع مستوى سطح البِحار، وتراجع الطبقة الجليدية في القطب الشمالي، وذوبان الأنهار الجليدية، والتقلب الفائق لتَهاطل الأمطار، فضلاً عن ازدياد وتيرة العواصف وشدتها ـ يضع المجتمعات البشرية أمام سيناريوهات لم تشهدها من قبل. وسوف يكون لهذه الديناميات وقع على الموارد، لاسيما المياه والأغذية، التي تعتمد عليها الشعوب والدول ـ فضلاً عن النظام العالمي القائم على هذه الدول ـ من أجل البقاء، والأمن والرخاء. وبدأنا نشهد تفاقما في هشاشة الدول وفي المشكلات الأمنية في مناطق رئيسية عديدة ـ مثل النزاعات في الشرق الأوسط وأفريقيا، والتوترات في مناطق صيد الأسماك في بحر جنوب الصين، فضلاً عن ساحة المعركة السياسية والاقتصادية الجديدة في المحيط المتجمد الشمالي بعد أن تحرّر من الثلوج.

وبينما يحدث تحويرات في المشهد الطبيعي للعالم، يضفي تغير المناخ كذلك تحويرات على المستوى الجغرافي والسياسي. وفي حال انعدام قدرة الحكومات على التخفيف من حدّة هذه التداعيات، فسوف تزداد المخاطر المهددة باندلاع النزاعات وزعزعة الاستقرار، وسوف يصعب التحكم فيها أكثر فأكثر. وهذا هو شأن العديد من المناطق، لكن القرن الأفريقي يبقى مهدّدا أكثر بسبب اقتران أوجه ضعف هيكلية مع كونه عرضة لمخاطر تغير المناخ. ولذلك، هناك خشية من حدوث نزاعات وزعزعة الاستقرار في شبه الجزيرة، أكثر من المناطق الأخرى.

مركز هش

مع مرور الزمن، وبالإضافة إلى الضغوط الديموغرافية والاقتصادية والسياسية القائمة، قد ينجر عن تأثير تغير المناخ على الموارد الطبيعية إضعاف قدرة الدول على الحوكمة الذاتية، بما في ذلك قدرتها على الاستجابة لحاجيات مواطنيها المتعلقة بتوفير الموارد الأساسية ـ مثل الغذاء، والمياه، والطاقة والشغل ـ والتي تدعى «الشرعية المنتجة». والحال أن التهديد المسلط على هذه الشرعية من شأنه أن يؤدي إلى زعزعة استقرار الدولة، ونشوب نزاعات داخلية، بل وحتى إلى انهيار الدولة. ومن هذا المنظور، قد يشكل تغير المناخ تحدياً خطيراً لاستقرار دول القرن الأفريقي وشرعيتها ـ علما وأنها منطقة تواجه عددا لا يحصى من الصعوبات، قبل أن تضاف لها تلك المتأتية من تغير المناخ.

إحدى ضحايا النزاع في السودان سنة 2008 تنتظر حصّتها من المعونة الغذائية الاستعجالية

و قد تم التأكيد على هذه التحديات من قبل مجلس الأمن للأمم المتحدة في بيان أصدره رئيس المجلس في يناير 2018 جاء فيه: «*ويقر مجلس الأمن بالآثار الضارة لتغير المناخ والتغيرات الإيكولوجية، وغير ذلك من العوامل، على استقرار غرب أفريقيا ومنطقة الساحل، بما في ذلك بسبب الجفاف والتصحر وتدهور الأراضي وانعدام الأمن الغذائي، ويشدد على ضرورة قيام الحكومات والأمم المتحدة بإجراء تقييمات وافية للمخاطر المرتبطة بهذه العوامل ووضع استراتيجيات لإدارة هذه المخاطر.*»

ووفقاً لمؤشر الدول الهشّة الصادر عن مؤسسة صندوق السلام، يشمل القرن الأفريقي بعضاً من أشد البلدان ضعفاً في العالم – ألا وهي الصومال، وأثيوبيا، وإريتريا، وكينيا، والسودان وجنوب السودان. كما أن هذه المنطقة تسجل العديد من المؤشرات الواضحة حول العلاقة بين تغير المناخ والنزاعات – ولاسيما النزاعات بين المجتمعات الزراعية والمجتمعات الرعوية الناجمة عن حالات الجفاف وعدم استقرار الموارد المائية، وتزداد الحالة حدة جراء الأوضاع المناخية.

ونذكر في هذا الصدد ما تسببت فيه فترة الجفاف القصوى وطويلة الأمد التي عاشها الصومال عام 2011 جراء تغير المناخ، من ضغط إضافي على وضع كان متوترا أصلا لندرة الموارد. وقد تساهم هذه الضغوطات في تفاقم التوترات والنزاعات بين المجموعات السكنية وفي تحريض السكان على الهجرة – بالإضافة إلى تأثيرها على أسعار المواشي والممتلكات الأخرى. وقد يفضي هذا الوضع أيضاً إلى استفحال سوء التغذية وتفشي الأمراض والتأثير سلبياً على الأمن الغذائي (لمزيد من المعلومات: المجلة الأمريكية الزراعية، يوليو 2014 ص. 1157-1182).

وقد يمتد أثر حالات التوتر المحلية المتولدة عن صعوبة النفاذ إلى الموارد الغذائية والمائية إلى البلدان المجاورة، حيث أن السكان المحرومين يتوجهون عادة إليها للحصول على المواد الغير متوفرة محليا، فيشتد الضغط على موارد تلك البلدان المجاورة، وقد يزداد الوضع تأزما. وللتوضيح، تجدر الإشارة إلى أن تغير المناخ الذي يتسبب في تقلص الموارد المائية لا يمثل المصدر المباشر لاندلاع النزاعات، ولكنه يضاعف شدّة الضغوط على الموارد الطبيعية، فتزداد مخاطر نشوب النزاعات. وفي غياب ترشيد الحوكمة وتحسين التصرف في الموارد الطبيعية، فسوف تتكرر مثل هذه الحالات في المستقبل.

مشهد جغرافي سياسي جديد

تشير بعض الدراسات الحديثة وما يقترن بها من نماذج وتقديرات استشرافية، مشفعة بالتفاصيل الدقيقة، إلى أن تغير الظروف المناخية بإمكانه تهديد أمن الدول والترفيع في احتمال نشوب الصراعات، إذا لا يتم اتخاذ الاجراءات اللازمة للحد من مفعوله. كما أن عددا كبيرا من البحوث بيّنت الروابط بين تغير المناخ، وعدم استقرار هطول الأمطار، والنزاعات. وثمة العديد من السيناريوهات الأخرى التي تفسّر كيف أن التداخل بين وقع المناخ والوضع الأمني يؤدي إلى تصميم مشهد جغرافي سياسي جديد:

- ***المدن الساحلية وارتفاع مستوى البحار***

يجري التوسع العمراني في القرن الأفريقي بوتيرة سريعة، بما في ذلك على السواحل. وتعتبر المدن الساحلية المتنامية، مثل مقديشو (الصومال)، ومدينة جيبوتي، ومومباسا (كينيا) مهددة بارتفاع مستوى البحر.

فهناك احتمال في أن تغمر مياه البحر الهياكل الحضرية الأساسية، وأن تتسبب في تلوث إمدادات المياه العذبة من خلال تسرب المياه المالحة، وأن تحد من إنتاجية الأراضي الصالحة للزراعة، فتدفع بمجموعات سكنية بأكملها إلى الهجرة.

- ***مضيق خطير***

لخليج عدن، وهو ممر مائي على امتداد القرن الأفريقي، أهمية قصوى. وبما أن تغير المناخ يقلّص الفرص الاقتصادية في المنطقة أكثر فأكثر، فمن المحتمل أن تتزايد عمليات القرصنة على طول السواحل. و قد بينت البحوث وجود تقاطع هام بين البلدان التي تسجل معدلات مرتفعة لهجمات القرصنة (قبالة سواحل الصومال، وأثيوبيا، وإرتريا)، وبين البلدان الأفريقية الأكثر هشاشة من حيث الظروف المناخية. وتوفر الرسوم البيانية صورة مقلقة لكيفية تأثير تراكم المخاطر على تكريس عجز الدول في منطقة القرن الأفريقي.

- ***مصائد الأسماك والأمن الغذائي***

يساهم ارتفاع درجة حموضة المحيطات وحرارتها في الهجرة وفي استنفاذ كميات الأسماك في العالم، وبشكل خاص على طول سواحل القرن الأفريقي – لكن متابعة الوضع ليست على المستوى المطلوب كي يتم تحديد مدى اتساع هذه التداعيات بصفة دقيقة. وقد يؤدي تغيير كيمياء المحيطات ودرجات حرارتها إلى تفاقم احتمالات التوتر في القرن الأفريقي، بين الدول والأطراف الفاعلة في المناطق الداخلية، إذ هم يتقاسمون نفس الساحل، مما يزيد في احتمال نشوب نزاعات حول ممارسة صيد الأسماك، حيث أن السفن تجوب المياه المجاورة، أو تتنافس على موارد في تضاؤل مستمر في المياه الدولية.

- ***الهجرة***

تزيد حالات الجفاف وما يقترن بها من عوامل أخرى، في حث السكان على الهجرة، سواء في أفريقيا أو خارجها. ويبقى السكان الذين يتعذر عليهم الرحيل مهددين بـ«الحصار»، أو عاجزين على التنقل إلى أماكن أكثر أماناً. ومن المحتمل أن يفضي انخفاض هطول الأمطار وزيادة الحوادث الجوية الشديدة في القرن الأفريقي إلى تفاقم الهجرة من حيث العدد والوتيرة.

ويعتبر روبرت ماكليمان من جامعة ويلفريد لوريي (كندا): «هناك احتمال في أن تشكل الدول الهشة سياسيا في المستقبل مراكز أحداث العنف والهجرة الجبرية المرتبطة بالمناخ» (مراكز المناخ والأمن، يونيو 2017). وبالفعل، من بين الدول العشرين التي تتصدر مؤشر الدول الهشة لعام 2017، هناك اثنتا عشرة دولة تقع في مناطق الشرق الأوسط، وجنوب آسيا وأفريقيا، التي من المتوقع أن تشتد فيها أزمة ندرة المياه بسبب تغير المناخ. ومن بينها خمس دول تقع في القرن الأفريقي وهي الصومال، وإرتريا، والسودان، وجنوب السودان، وكينيا.

عسكرة مراكز موارد المياه

إن التغير الطارئ على توفر الموارد المائيه ـ ندرة الموارد وصعوبة بلوغها ـ جراء تغير المناخ قد أدى أيضا إلى استخدام الماء كسلاح من طرف الدول والجهات الفاعلة غير الحكومية. وفقا لدراسة حديثة أنجزها ماركوس كينغ من جامعة جورج واشنطن (الولايات المتحدة)، تعتبر الصومال معرضة بصفة خاصة الى هذا الترابط بين المناخ والنزاعات وعسكرة مراكز الموارد المائية (مراكز المناخ والأمن، يونيو 2017). وفي عام 2011، عانت الصومال من حالات جفاف إقليمية تم ربطها بتغير المناخ. ويلاحظ ماركوس كينغ أنه في تلك الآونة، قامت جماعة الشباب الجهادية الأصولية «بتغيير خطة تحركاتها الميدانية وبدأت في عزل المدن المحرّرة عن موارد المياه، لتدلّ على حد أدنى من نفوذها وحضورها. وكان لتغير المناخ والافتقار للمواد الغذائية واستمرار النزاع وكذلك عسكرة مراكز الموارد المائية، انعكاسات فادحة على السكان الذين لم يتمكنوا من الحصول على المساعدات الإنسانية بسبب العمليات التي تشنها حركة الشباب، وقد ترتب عن ذلك وفاة أكثر من 250.000 نسمة وتشرد مئات الآلاف من الأشخاص».

بريق من الأمل

وإن كانت فترات الجفاف والأحداث الجوية الشديدة تشكل ظواهر مألوفة في المنطقة، إلّا أن سرعة التغير وتقلّص الفترات الفاصلة بين الأحداث سوف تضاعف من شدة الضغط على الحكومات التي تتحمل أصلاً أعباء ثقيلة، مما يؤول إلى تضاعف مخاطر زعزعة استقرار الدول ونشوب النزاعات بشكل دائم. ولكن، يلوح في الأفق بريق من الأمل لأن تغير المناخ، ولاسيما مقارنة بعوامل أخرى تهدد الأمن الدولي، يبقى قابلا لوضع نماذج توقعية موثوقة بدرجة عالية ولو نسبياً.

ورغم أن التوقعات على الصعيد المحلي تبقى غير مضمونة، فإن النماذج المناخية الاستشرافية ترسم صورة واضحة لما يحمله المستقبل، مما يتيح للحكومات والمجتمعات وضع المخططات المناسبة. لكن إحكام القدرة على التنبؤ لا تضاهي الاستعداد. إن التزامن بين «*وجود مخاطر غير مسبوقة*» و«*قدرة على الاستشراف غير مسبوقة*» يدفع بنا إلى «*مسؤولية التـأهب*» (تقرير رفع إلى مجلس الأمن للأمم المتحدة، ديسمبر 2017) وهي مسؤولية لا بد أن تتحملها المؤسسات المحلية، والوطنية والدولية من خلال تدعيم قدرتها على المرونة المناخية في منطقة القرن الأفريقي. وإن لم تقم بذلك، فسوف يتم المساس بصفة هائلة لا فقط باستقرار المنطقة بل باستقرار العالم بأسره.

كيتلين إ. ويريل وفرانشيسكو فيميا ثنائي أسس مركز المناخ والأمن ويقومان برئاسته. وهو مركز دراسات سياسية مستقل مقره واشنطن عاصمة الولايات المتحدة، يضم فريقاً ومجلساً استشارياً يتألف من خبراء مرموقين في الشؤون الأمنية والعسكرية، وهو المؤسسة الوحيدة التي تعنى حصريا بتحليل المخاطر الأمنية الناجمة عن تغير المناخ.

تغيير العقليات، وليس المناخ

© UNESCO

لمواجهة التحديات التي يفرضها تغيّر المناخ، بعثت اليونسكو أكثر من ثلاثين برنامجا للمساهمة في تقديم المعلومات المتعلّقة بهذا الرهان الجسيم الذي يتّسم به عصرنا، وكذلك في إدراك مخلّفاته الأخلاقية والتوعية بها.

وإذ تُعرّف المنظمة بالمبادئ الأخلاقية العالمية المتّصلة بتغير المناخ، فإنها تُقدّم الخطوط التوجيهية لاتخاذ القرارات وصياغة الاختيارات السياسية التي تهدف إلى التصدّي للخسائر والمظالم المرفوضة معنويّا. إن الوقاية من الأضرار، وانتهاج الاحتياط، والعدل والإنصاف، والتنمية المستدامة، والتضامن، والمعارف العلمية، والنزاهة في اتخاذ القرار، تُمثّل كلها ركائز «*إعلان المبادئ الأخلاقية*»، الذي تمّ اعتماده في نوفمبر 2017.

من جهة أخرى، تقوم اليونسكو بمساعدة الدول الأعضاء على التأقلم مع تغيّر المناخ، والتخفيف من وقعه، وعلى التعليم من أجل التنمية المستدامة، وكذلك على تقييم مخاطر الكوارث الطبيعية. بواسطة برنامجها الهيدرولوجي الدولي، تُيسّر اليونسكو التعاون العلمي لتقييم ومتابعة التغيّرات التي تُؤثّر على الموارد المائية. أما برنامجها *الإنسان والمحيط الحيوي*، فهو يهدف إلى تحسين وسائل معيشة الشعوب مع الحفاظ على النظم البيئية. وتقوم كل من محميات المحيط الحيوي التي يتولّى تسييرها برنامج الإنسان والمحيط الحيوي، وشبكة مواقع التراث العالمي أو الشبكة العالمية للحدائق الجيولوجية، بدور المرصد لتغيّر المناخ.

وتعير المنظمة اهتماما خاصّا لسلامة المحيطات باعتبار دورها في تعديل المناخ وامتصاص حوالي ثلث انبعاثات الكربون. وتتعرّض حاليا السواحل والنظم البيئية البحرية إلى تغيّرات هامة جراء تزايد الغازات المسببة للاحتباس الحراري، والتلوّث الساحلي، والصيد المُكثّف، والضغط الديموغرافي. كل هذه العوامل تضرّ بالخصوص *بالدول الجزرية الصغيرة النامية التي وضعت اليونسكو خطة عمل لفائدتها*.

وتندرج استراتيجية اليونسكو في إطار التمشّي الشامل الذي حدّدته *اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ*. ومنذ ندوة باريس لسنة 2015 حول تغير المناخ، دأبت اليونسكو على حضور هذه الندوات السنوية، وتعرض خلالها مختلف مبادراتها. وتشكل المعارض التي تُنظّمها فضاءات للتحاور والتفاعل مع الجمهور والمجتمع المدني. إن ضرورة تغيير العقليات أصبحت بديهية. ولمواجهة هذا التحدّي العالمي، لا بد من فهم عميق للمشكلة، بواسطة التحسيس والتوعية بالتنمية المستدامة. «*لنغيّر العقليات، وليس المناخ*»، تلك هي رسالة اليونسكو الأساسية حول الموضوع.

من منظور دومينيكي:

أنثروبوسين أو كابيتالوسين؟

بقلم أندرياس مالم

بالنسبة لأندرياس مالم، لا يُعزى تغير المناخ إلى مجرد وجود المليارات من البشر على سطح الكوكب، ولكن إلى الفئة الضئيلة التي تسيطر على وسائل الإنتاج وتقرر بشأن استخدام الطاقة. إن هذا العصر أقرب من مفهوم الكابيتالوسين من أن يكون من الأنثروبوسين. وحتى نتمكن من التكهن والوقاية من الأحداث المناخية القصوى مثل الأعاصير التي تدمّر دومينيكا، لا بد من مؤاخذة رؤوس الأموال المرتبطة بموارد الطاقة الأحفورية.

بالأمس، كانت دومينيكا تلقي بتلالها الزمردية فوق البحر الكاريبي. عندما زرت الجزيرة في أغسطس عام 2017، كانت لا تزال مغطاة بغابات ذات لون أخضر لا مثيل له، يفيض النبات على كل قمة وفي كل فج. هي الجزيرة التي تعد أكبر نسبة من الجبال مقارنة بغيرها من جزر المنطقة، كما تحتوي على غطاء غابوي محفوظ على أفضل وجه. كانت روعةً من روائع الطبيعة، ولكنها كانت فقيرة. يعيش غالبية سكانها ـ وعددهم 70.000، معظمهم من أصل أفريقي – بكل بساطة في مزارع صغيرة، يرتزقون من زراعة الموز، والموز الأخضر، وبطاطس الإينيام وقليلا من الصيد والسياحة.

كانت الجزيرة قد عانت من عاصفة أولى. في عام 2015، تسببت العاصفة الاستوائية «إريكا» في تدفق هائل للمياه فوق التلال، حتى أن البعض منها قد انهار. عندما وصلتُ على عين المكان، كانت البلاد لا تزال تعالج الجروح التي خلفتها هذه الكارثة. وكانت آثار العاصفة واضحة للعيان في جنوب شرق الجزيرة حيث خلفت الانهيارات الأرضية قروحا على المنحدرات وجرفت معها التربة والأشجار والمساكن.

© Jason DeCaires Taylor (www.underwatersculpture.com)

ارتفاع المد، نصب للفنان البريطاني جازون ديكيرز تايلور فوق نهر التايمز، بلندن، 2015

كان الجميع مشغولا بإعادة بناء الطرقات وتثبيت المخيمات لإيواء الناجين.

في 18 سبتمبر 2017، أي بعد ستة أسابيع من مغادرتي الجزيرة، ارتفع إعصار «ماريا» فجأة إلى الصنف 5 – وهو مستوى شديد ونادر – ليضرب دومينيكا في الصميم. وفي غضون ليلة واحدة، أصبحت الجزيرة الخضراء بُنِّيَّة اللون. لقد عصفت الرياح بشدة غير عادية وأهلكت الغطاء الغابي بأكمله.

خسائر لا تحصى

كان البحر يجرف أوراق الأشجار وأغصانها، وكانت الجذوع المجرّدة ملقاة وسط الأراضي القاحلة، كما لو تمت عملية اقتلاع كلي لأشجَار الغابة. كان أثر «إريكا» على الجزيرة بمثابة الخدشة، لكن أثر «ماريا» كان سلخا بأتم معنى الكلمة. هذه المرة، تهشمت البنية التحتية بأكملها – المنازل والطرقات والجسور والمستشفيات والمدارس – وهلك القطاع الزراعي نهائيا. وقدرت التكلفة المالية للخسائر بضعف الناتج المحلي الإجمالي للبلاد، ولكن، كما أوردت شبكة الأنباء الانسانية *إيرين* «الاحساس بالخسارة والفقدان لا يقاس بالأرقام».

وبعد شهر من مرور إعصار «ماريا»، همّ خُمس السكان بجمع القدر القليل من ممتلكاتهم التي تمكنوا من إنقاذها، وغادروا الجزيرة. أما الباقون فيتحدثون عن أنفسهم كما لو كانوا جنودا في ساحة المعركة. لقد اجتاح الخطاب العسكري البلاد. بعد خمسة أيام من الإعصار، وجه رئيس الوزراء روزفلت سكريت الذي أصبح هو الآخر بدون مأوى، خطابا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة جاء فيه: «أنا آت من الخط الأمامي. (...) بينما ندفع نحن سكان دومينيكا ثمن تغير المناخ، نتحمّل عواقب تصرفات غيرنا المهددة لوجودنا، وكل ذلك لإثراء البعض، في أماكن أخرى من العالم».

إن أحفاد العبيد الذين يعيشون في دومينيكا لم يفعلوا شيئا من شأنه أن يتسبب في تدفئة هذا الكوكب، ولا الهنود القلائل الذين لا زالوا في الجزيرة. فالمزارعون الفقراء الذين يعملون كسائقي سيارات أجرة أو باعة متجولين لتحسين دخلهم، لا ينتجون إلا قدرا تافها من بصمة الكربون، وليست لديهم أية سلطة على إمدادات الطاقة العالمية. ومع ذلك، هم الذين لقوا حتفهم تحت وقع الإعصار الشديد، وباتت حياتهم دمارا والأرض تحت أقدامهم خرابا.

هل هي مسؤولية البشرية جمعاء؟

ولكن الخطاب حول تغير المناخ، كما تمت صياغته على مدى العقد الماضي في أوساط البحث العلمي ووسائل الإعلام ودوائر صنع القرار الغربية، يروي قصة مختلفة. ما يقوله لنا هو إننا جميعا مسؤولون، وإن الاحتباس الحراري هو خطأ اقترفه الجنس البشري بأكمله، وإننا نعيش في الأنثروبوسين، العصر الذي يملك فيه البشر مقاليد قوى الطبيعة ويحدد مسار هذا الكوكب، كما يتبين ذلك خصوصا في مجال المناخ. إذا، قد تكون البشرية جمعاء هي المسؤولة عن حصول هذه الكوارث.

ويوجد تعبير صريح لهذا المنطق في كتاب من أكثر الكتب شهرة في هذا الموضوع في السنوات الأخيرة، يحمل عنوان *التشويش العظيم: تغير المناخ وما لا يمكن تصوره*، للكاتب الهندي أميتاف غوش الذي يرى أن ظاهرة الاحتباس الحراري «هي نتيجة غير مقصودة لوجود النوع البشري». ويذهب إلى ما أبعد من ذلك معتبرا أنه «ناتج عن كل الأفعال البشرية على مر الزمن. لقد ساهم كل إنسان عاش على وجه الأرض في جعلنا النوع المسيطر على هذا الكوكب، ولذلك، لكل إنسان، في الماضي أو الحاضر، قسط في الدورة الحالية لتغير المناخ». من هذا المنظور، تكون أية مزارعة قهوة في دومينيكا قد ساهمت في حدوث إعصار «ماريا» لمجرد أنها تنتمي إلى جنس الانسان العاقل. والأمر كذلك بالنسبة لأسلافها العبيد الذين تم جلبهم إلى الجزيرة، أو لمجموعة الكاليناغوس الذين عاشوا هناك في سلام لحين وصول الأوروبيين في عام 1492.

قراءة خاطئة

من الصعب جدا وجود حجج علمية لتبرير مثل هذا السيناريو، لكن العديد من المثقفين المعلقين على مفهوم الأنثروبوسين يذهبون في نفس الاتجاه. لنأخذ مثالا آخر فقط، في منظور المؤرخ ديبيش شاكرابارتي (انظر ص. 11) الذي يُعتبر دون شك المحلل الأكثر نفوذا في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية. فهو يرى بالنسبة لأسباب تغير المناخ، أن «الفقراء ساهموا بقدر الأغنياء في هذا التاريخ المشترك من تطور الإنسان» (*المناخ ورأس المال: تواريخ مرتبطة*، كريتكل إنكوايري، 2014).

من هذا المنظور، يبدو إعصار «ماريا» أشبه إلى الانتحار منه إلى الحرب الخاطفة. وهذا يعني: الذي يكسِّر هو من يدفع، وهذا هو الإنصاف ذاته. لكن، إذا نظرنا من فوق التلال العارية في دومينيكا، وجدنا أن الواقع غير ذلك تماما. إن سيناريو الأنثروبوسين مغلوط لأنه يشوه ويطمس الحقيقة، ليس لإعلانه أن أفعال البشر هي التي تسبّبت في تغير المناخ – وهو أمر لا جدال فيه – ولكن لأنه يستخلص من هذا الواقع أن النوع البشري ككل مسؤول عن هذا التغير. في حين أن الأمر ليس كذلك.

اقتدوا بالزعماء، نصب للفنان الإسباني إسحاق كوردال من معرض فراجيل (بروكسل، 2015). يُمثّل هذا العمل المُصغّر رجال أعمال غائصين في خليط من الماء والبترول

منذ آلاف السنين ومنذ وجود المجتمعات الطبقية، كان مجتمع هومو سابينس (الإنسان العاقل) مجزأ ولكن لم تبلغ هذه التجزئة أبدا مستوى ما هي عليه في هذا العالم الذي ترتفع حرارته بسرعة فائقة: وفقا للمنظمة الإنسانية أوكسفام (يناير 2017)، تفوق الثروة التي يمتلكها أغنى ثمانية أفراد (426 مليار دولار أمريكي) مجموع ما يملكه نصف سكان العالم الأكثر فقرا (409 مليار دولار أمريكي). والثروة، كما نعلم، مرتبطة بشكل وثيق مع انبعاثات ثنائي أكسيد الكربون. وفيها دلالة على أن الأرباح ناجمة عن استمرار الوضع الحالي، وهي خير برهان على عواقبه. هي مدفونة في قلب الأحافير، وهي القوة الدافعة للإعصار.

© Isaac Cordal (cementeclipses.com)

وباء البلاستيك

يقال لنا أن تغير المناخ صادر عن كتلة مجهولة تتكون من الملايين أو المليارات من البشر، في حين أنه في الواقع، وكما أكده حديثا العالم الجغرافي الأمريكي مات هوبر، هناك جزء صغير جدا من الجنس البشري الذي يمتلك وسائل الإنتاج، ويأخذ القرارات الرئيسية المتعلقة باستخدام مصادر الطاقة. هذه الشريحة من الناس لديها هدف واحد فقط: أن تصبح أكثر ثراءً. هذه العملية التي تسمى «تراكم رأس المال»، لا تزال مستمرة بلا هوادة، غير مبالية بمصير سكان دومينيكا ولا حتى بإشارات علم المناخ اليائسة.

لنأخذ مثالا واحدا. في ديسمبر 2017، أشارت *جريدة الغارديان* إلى أن إنتاج البلاستيك في الولايات المتحدة سوف يزداد بنسبة 40% خلال السنوات العشر القادمة، بما أن شركة إكسون موبايل وشركة شال وغيرها من منتجي الوقود الأحفوري قد استفادت من الطفرة الحالية للغاز الصخري من أجل الاستثمار بكثافة في مصانع بلاستيك جديدة. وسوف ينجر عن هذا القرار ترسيخ الإدمان على المواد البلاستيكية لدى الأمريكيين، وبالتالي في الاقتصاد العالمي. وفي نهاية المطاف، سوف تغمر هذه المواد الشواطئ في جميع أنحاء العالم، مما سيؤدي إلى استهلاك إضافي للوقود الأحفوري، ومن ثم إلى ارتفاع الحرارة التي سوف تدمر جزر أخرى. ومن منظور الرأسمالية، هذا هو بالضبط ما يجب القيام به: الاستثمار في إنتاج واستهلاك الوقود الأحفوري من أجل توليد الأرباح. إن هذه العملية هي المتسببة في الاحترار العالمي.

إن سكان دومينيكا وغيرهم في جميع أنحاء العالم من الذين لم يسعفهم الحظ، والذين سوف يتزايد عددهم عاما بعد عام – ما لم تتم من الآن مواجهة رأس المال الأحفوري بصفة مباشرة – لم يعيشوا أبدا في ما يسميه البعض الأنثروبوسين. إنهم يعانون من آثار زمن من الأنسب تسميته بالكابتالوسين (عصر الرأسمالية). على الرغم من كونها حربا هيكلية وممنهجة، من المتوقع أن تتضاعف الهجمات العنيفة في المستقبل، وما يتبعها من انصدام وفزع . والسؤال هو متى – أو هل – ستكون هنالك ردة فعل. لكن اتهام الجنس البشري لن يشجع على التحرك.

أندرياس مالم (السويد) أستاذ في علم البيئة البشرية في جامعة لوند بالسويد. ألف العديد من الكتب، من بين آخر ما صدر له *هذه العاصفة في تقدم: الطبيعة والمجتمع في عالم الاحتباس الحراري* (2018)، حول مخاطر ظاهرة الاحترار العالمي.

كفى من خطاب التفزيع!

فرانسيس شاتورينو يجيب عن أسئلة ريجيس ميران

تتناول النقاشات التي تدور حول الأنثروبوسين قضايا علمية حقيقية بما أن الأمر يتعلّق بتصوّر نموذج شامل لتطوّر التوازنات الكونية. لكن التفسيرات يخترقها شيء من التشويش إذ يتم استعمالها من قبل بعض الكتّاب للتنبّؤ بنهاية العالم، وهذا التمشّي من شأنه أن يعيق تحقيق النتائج المرتقبة.

تقوم منذ مدة طويلة بدراسة الجدل العلمي، ما رأيك في النقاشات حول الأنثروبوسين؟

أعتبره نقاشا هاما: يبحث العلماء عن نموذج شامل لحالة لم تستقرّ بعد. الهدف هو وضع نظام ثابت يضبط قوانين سير كوكب الأرض، بالاعتماد على التفكير بطريقة شاملة وإدماج مُتغيّرات عديدة كانت إلى حد الآن منفصلة. وبفضل القدرات العالية في الحساب، أصبح بالإمكان القيام بتصاميم رقمية افتراضية والإعداد تدريجيا لنموذج للمحيط الحيوي، تتمّ دراسة تقلّباته حسب تغيير المعطيات، مثل درجة حرارة المحيطات أو نسبة حموضتها.

الأنثروبوسين هي فرضية تهمّ بنفس الدرجة علماء الجيولوجيا وعلماء الآثار الذين يجابهون تواجد بقايا مواد إشعاعية أو كيميائية في الأراضي. والسؤال يبقى مطروحا حول ما إذا يجب فعلا الحديث عن عصر جيولوجي جديد ليعقب الهولوسين. أما عن مدى ملاءمة عبارة *أنثروبوسين* فسوف تتّضح الأمور دون شك على المدى الطويل، ومن الطبيعي أن تكون موضع جدل. ويخيّر بعض المؤلفين، مثل الأمريكي جازون مور أو السويدي أندرياس مالم، عبارة *كابيتالوسين*.

هذا التغيير في التوصيف قابل للنقاش، بالنظر إلى البصمة البيئية المرتفعة التي خلفها الاتحاد السوفياتي في القرن العشرين...

في الواقع، ليست عبارة أنثروبوسين هي المثيرة للجدل، بل مدى نجاعة النموذج في التنبّؤ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الميل إلى التفزيع بحدوث الكوارث أو إلى حتمية وقوعها.

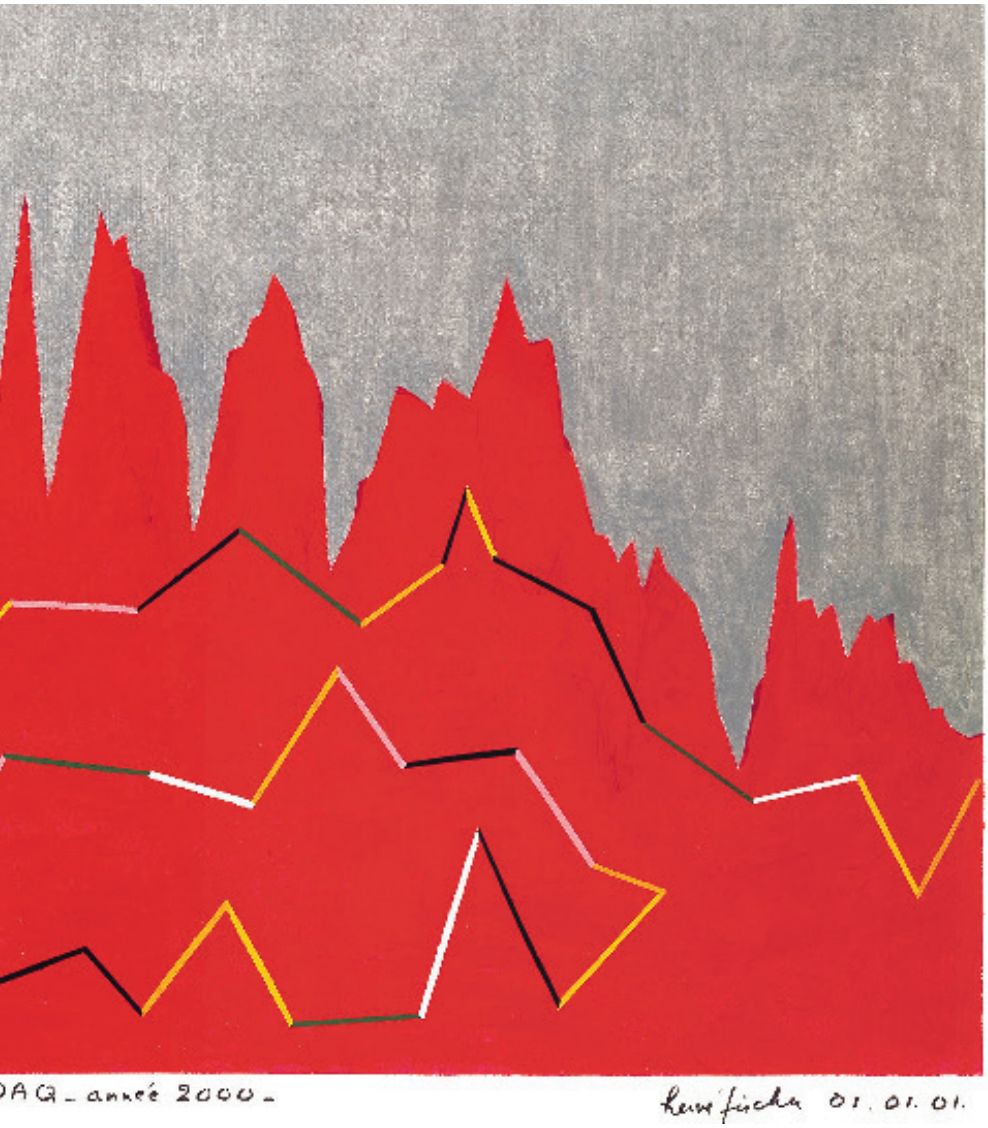

© Hervé Fischer (www.hervefischer.com)

هل لك أن تُوضّح لنا أكثر هذا الميل إلى التفزيع بحدوث الكوارث؟

المشكلة الأولى تأتي من الطريقة التي يتحدّث بها العديد من الخبراء باسم البشرية جمعاء، من خلال ضمير الجمع «نحن». لقد طرح المؤرخ الهندي ديباش شكرابارتي (انظر ص. 11 إلى 14) تساؤلات حول وظيفة ضمير الجمع، لأنه لما تُنسب بعض الأحداث إلى البشرية قاطبة، فذلك يعني أنه تم نسيان أو طمس حقيقة العديد من الناس، من الفقراء أو من الأقلّيات، الذين لا يتحمّلون أية مسؤولية في بروز الأنثروبوسين.

والمشكلة الأخرى تكمن في الطرح القائل بأننا قد دخلنا بعد في طور الهلاك. وعلى سبيل المثال، نشرت الصحيفة اليومية الفرنسية *لوموند* في نوفمبر 2017 نصا يحمل إمضاء 15.000 عالم بعنوان «قريبا سيكون قد فات الأوان».

فإذا كانت كلمة «*قريبا*» تحمل طفيفا من الأمل في إمكانية تدارك الوضع، ففي الإشارة إلى «*فوات الأوان*»، مع تكرار صيغ مثل «*لقد فشلنا*» أو «لم ننجح في»، انجرار إلى التفزيع بوقوع الكوارث. وهذا من شأنه أن يتيح لما يسمى بالـ«*غلوبال ثينكر*»، آي المثقف الذي يُفكّر في العالم ببعده الشمولي، أن يُضفي نوعا من الشرعية على مبالغاته ويمكّنه من سرد حكايته العظيمة التي تلخّص في بعض التعابير عالمنا المعقد. وقد جازف عالم الاجتماع الفرنسي برونو لاتور بالنزول إلى نفس الساحة في كتابه في *مواجهة غاي* (2015). إن التنبّؤ ممارسة مغرية تغذّي المؤلفات التي تتناول موضوع «*الفناء*» مثل كتاب الباحثَيْن الفرنسيّيْن بابلو سارفين ورافايال ستيفنس *كيف يُمكن أن ينهار كل شيء* (2015). ولئن اعتمد المُؤلفان على معطيات يصعب التشكيك فيها، تبقى طريقة جمعها في سرد حول نهاية العالم مريبة.

إن الانتقاد الرئيسي الموجه لهذا الخطاب المفزّع هو عدم جدواه. إن «استكشاف الخوف»، ذلك المفهوم الذي طوّره سابقا الفيلسوف الألماني هانس جوناس – الذي يعتبر أن التخوّف من الأسوأ هو السبيل الوحيد لإيقاظ الضمائر – لم يعد يتلاءم مع السياق المعاصر. حتى وإن وقعت نخب عظيمة على مقالات مُروّعة، لن تأتي الحلول. والرهان ليس في إعلان حتمية وقوع الكارثة، وإنما في المسك بزمام الأمور على مختلف الأصعدة العملية.

قد لا تكون خطب التفزيع مُجدية، لكنها تلقى صدى...

هي لا تلقى صدى فحسب، وإنما تُثير ردود فعل مُعادية. وانتهى الأمر إلى الخلط بين العلوم البيئية والترهيب من الكوارث. وتسعى مجموعات من الفاعلين، على غرار الجمعية الفرنسية للإعلام العلمي، لعكس هذا التوجّه وسوف تعلن أن السعادة التي نتمتع بها لم يسبق لها مثيل في هذا الكوكب. وفي هذه المجادلات، تلقى الخطب المثيلة لخطاب الجمعية المذكورة صدى واسعا خاصة وأنها لا تُطالب المتلقّين باتباع نفس التوجه.

هل يمكن، عمليا، تجنّب الكارثة؟

قبل كل شيء، يجب التذكير بأن هناك كوارث من كل الأنواع. والإعلان عن كارثة شاملة ونهائية هو تهرب من مواجهة الحقائق. ويجدر بنا أن نتجنّب تأييد نظرة منغلقة للمستقبل، حتّى إن كانت تحملها مؤسسات، وأن نُعيد فتح أبواب المستقبل. ويُوجد دائما أشخاص، وتجمّعات، ومدن، ومناطق قادرة على ابتكار حلول بديلة وتجديد حقل الممكن. يستعرض الكتاب الذي ألّفته بالاشتراك مع جوسكان ديباز *على حافة ما لا رجعة فيه* (2017) بروز العديد من «*الأنثروبوسين-المضادة*» : عوالم أخرى ممكنة تنبثق في كل فجوة من الفجوات. وإن كانت غالبا ما تظهر كعمليات «*مقاومة*»، إلّا أنها تخلق طرقا أخرى للعمل وإدراك العالم.

لنأخذ كمثال مشروع المطار الدولي على أراضي بلدية نوتر-دام-دي-لاند في فرنسا. يعود تصميم هذا المشروع إلى الستينات، ثمّ أُعيد إحياؤه في بداية سنوات 2000، وهو متناقض مع إعلانات الدورة الحادية والعشرين لمؤتمر الأمم المتحدة بشأن تغير المناخ الذي انعقد سنة 2015. وانتهى الأمر إلى التخلّي عنه نهائيا في يناير 2018 تحت ضغط المناضلين. وهو ما أسّس لنواة المقاومة المواطنية في نوتر-دام-دي-لاند التي مثّلت القدرة الجماعية على قلب سُلّم الأولويات.

أما التحركات حول البذور الزراعية التي ينتجها الفلاحون أو حول الزراعة المستديمة، فهي مستلهمة من طريقة سير النظام البيئي ومن الخبرات التقليدية، بهدف الوصول إلى الاكتفاء الذاتي. وكما هو الشأن بالنسبة إلى المدن التي تمرّ بمرحلة انتقالية، تسعى عديد التجارب الجماعية إلى إعادة تصنيف الثروات المشتركة وتسييرها، وتساهم بذلك في تغذية ابتكارات جديدة يمكن استغلالها من قبل السياسيين.

ويبقى المستقبل مفتوحا. وعلى كل من يتّسم بالروح الإنسانية أن يُكذّب المتنبئين المفزعين بحدوث الكوارث. إن الأماكن الموجودة في هذا الكوكب، حيث يناضل الناس لمواجهة الآثار المُدمّرة للتعاظم التقني-الصناعي، لا تُحصى ولا تُعدّ.

فرانسيس شاتورينو (فرنسا) عالم اجتماع، ومدير الدراسات في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس. نشر مُؤخّرا بالاشتراك مع جوسكين ديباز *على حافة ما لا رجعة فيه. سوسيولوجيا واقعية للتحوّلات* (باريس 2017).

تخمين، شغف، وقلق، لوحة أكريليك على القماش، 2001 للفنان والفيلسوف الفرنسي-الكندي هرفي فيشر

معجم الأنثروبوسين

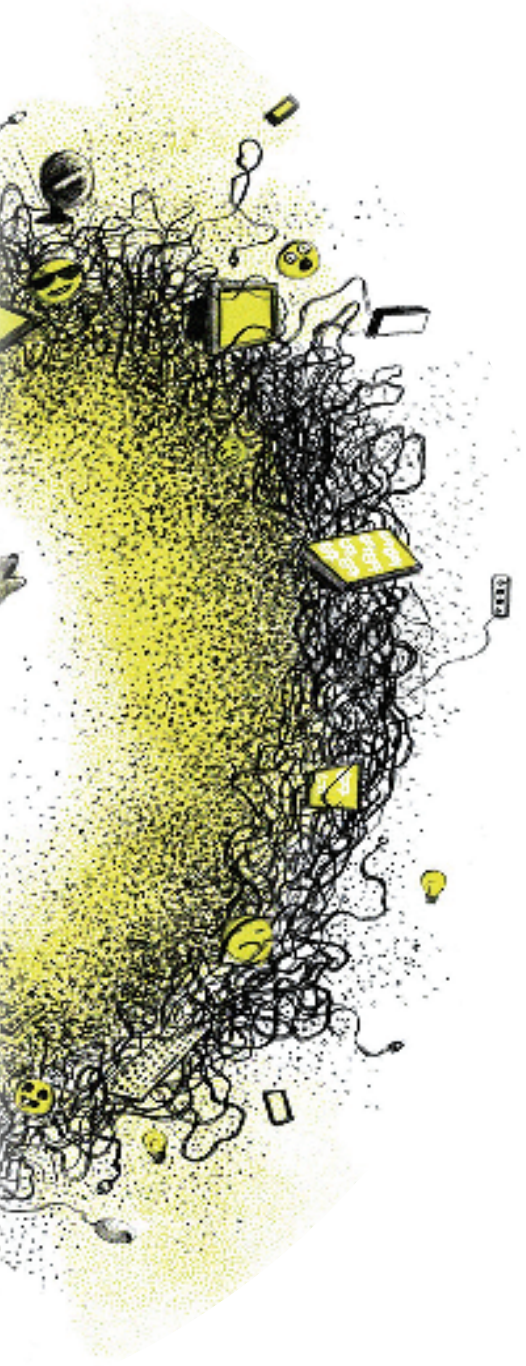

حتى نفهم الحوار الدائر حول الأنثروبوسين، لا يكفي أن نعرف العبارة التي اقترحها عالم البيولوجيا الأمريكي أوجان ف. ستورمر في الثمانينات، والتي انتشرت في السنوات 2000 بفضل الهولندي بول كروتزن. في ما يلي نظرة شاملة حول العبارات التقنية التي لا يجوز إغفالها.

القدرة البيولوجية هذا المفهوم أطلقه في بداية التسعينات كل من السويسري ماتيس فاكرناغل خريج المدرسة الفرنسية للتكنولوجيات المتعددة (بوليتكنيك)، والكندي وليام ريس، عالم البيئة. وآلت الأبحاث التي أجرياها حول القدرة البيولوجية الضرورية للكوكب من أجل نشاط بشري مُعيّن إلى تحديد مُؤشّريْن : القدرة البيولوجية (بيوكاباسيتي) والبصمة البيئية (انظر الفقرة أدناه). ومنذ سنة 2003، يتمّ احتساب هذين المؤشّريْن وتطويرهما من قبل المنظمة غير الحكومية *غلوبل فوتبرنت ناتوورك* (الشبكة العالمية للبصمة)، التي حدّدت مفهوم البيوكاباسيتي على أنها «قدرة الأنظمة البيئية على توفير المواد البيولوجية المفيدة وعلى استيعاب الفضلات التي يولدها الإنسان جراء استعماله لطرق التسيير وتكنولوجيات الاستخراج المتوفّرة».

عصر الرأسمالية (كابيتالوسين) صاغ عبارة «كابيتالوسين» الأمريكي جيزون مور، المختص في العلوم الاجتماعية وفي التاريخ، وهو يُخيّر استعمال «كابيتالوسين» على عبارة «أنثروبوسين» (عصر الإنسان). فمن وجهة نظره، الرأسمالية هي التي صنعت الأزمة البيئية الشاملة التي أدّت إلى تغيير العصر الجيولوجي. أما مفهوم «الأكسيدنتالوسين» (عصر الغرب) فهو شكل من أشكال «الكابيتالوسين» دعا له بالخصوص المؤرّخ الفرنسي كريستوف بونوي، ويفترض أن الدول الغربية المُصنّعة هي التي تتحمّل مسؤولية تغيّر المناخ وليس الدول الأكثر فقرا.

التطوّر المشترك بين الجينات والثقافة حسب إدوارد أ.ويلسون، الأخصّائي الأمريكي في العلوم الاجتماعية والبيولوجية، فإن الجينات مكّنت من ظهور العقل البشري والثقافة الإنسانية (اللغة، الترابط العائلي، الدين، الخ). وفي المقابل، فإن الخصوصيات الثقافية يُمكن أن تساعد على التطوّر الجيني بفضل استقرار بعض الجينات التي تُوفّر تفاضلا انتقائيّا لأفراد المجموعة التي لوحظ فيها هذا السلوك الثقافي. وقد لاقت فكرة «التطوّر المشترك» بين الجينات والثقافة انتقادات العديد من علماء الأنثروبولوجيا والبيولوجيا، بحجّة أن انتقال الخصوصيات الثقافية هي ظاهرة متقلّبة لا تخضع إلى قوانين التطوّر الداروينية. كما يلاحظون أن الإنسانية عاشت، خلال الخمسين ألف سنة الماضية، تحوّلات ثقافية هامّة، في حين أن التراث الجيني الإنساني بقي على حاله (ما عدا بعض الاستثناءات).

البصمة البيئية حسب المنظمة غير الحكومية *غلوبال فوتبرنت نتوورك* (الشبكة العالمية للبصمة)، تعني هذه العبارة «المساحة التي تُنتِج بيولوجيّا التربة والمياه التي يحتاجها فرد أو مجموعة بشرية أو نشاط ما، لإنتاج الموارد المستهلكة وامتصاص الفضلات المتولّدة عنها باستعمال ما يتوفر من تكنولوجيات وطرق تصرّف في الموارد».

العهد الجيولوجي يتكون سلّم الأزمنة الجيولوجية من أصناف مختلفة من الوحدات الزمنية: الدهور، والعصور، والفترات، والعهود، والأعمار. و حتى يتمّ الإقرار بتصنيف وحدة فرعية، لا بد أن تتوفر فيها، بشكل متطابق ومتجانس، شروط تتعلق بالبيئة القديمة (خصوصيات مناخية)، والأحياء المادية القديمة (أنواع الأحافير) أو الرسوبيات (المتولّدة عن الكائنات الحيّة، والأتربة، والصخور، والرواسب...). ويعود إلى كل من اللجنة الدولية لطبقات الأرض والاتحاد العالمي للعلوم الجيولوجية تحديد المعايير العالمية لسلّم الأزمنة الجيولوجية. ونحن نعيش اليوم في عهد الهولوسين الذي يقترن باستقرار الإنسان والفلاحة. وإذا تم الإقرار بتوفّر الشروط المذكورة آنفا، قد يتم قريبا تحديد الأنثروبوسين كعهد جيولوجي جديد.

فرتيغو، طباعة حجرية للفنان الفرنسي انطونان مالكيودي، 2018

© Antonin Malchiodi (antoninmalchiodi.fr)

التسريع الكبير يتّفق العلماء، منذ الخمسينات، على الاعتراف بأن الأنظمة البيئية قد تشوّهت بسرعة وبعمق أكثر من أي وقت مضى، بمفعول التطوّر غير المسبوق للاستهلاك الجماعي (في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية)، والارتفاع الديموغرافي المدهش، والنمو الاقتصادي والعمراني. وأطلق عالم الكيمياء الأمريكي ويل ستيفن على هذه الظاهرة أسم «التسريع الكبير».

التباعد الكبير تعني عبارة «التباعد الكبير» التي أطلقها المُؤرّخ الأمريكي كينيث بوميرانز، الإقلاع الصناعي الذي خلّف الفارق بين أوروبا والصين بداية من القرن التاسع عشر. وحسب هذا المؤرّخ، فإن التوزيع الجغرافي غير المتساوي للموارد في مادّة الفحم، واكتساح العالم الجديد، هما العاملان الحاسِمان في دفع ا الاقتصاد الأوروبي.

الكوكب (وحدة قياس) لكي نتعرّف على البصمة البيئية لبلاد ما، نلجأ عادة إلى قيس عدد «الكواكب» الضرورية لسكان تلك البلاد، على أساس افتراض تطبيق نمط عيشها واستهلاكها على مجموع سكان العالم.

الإنقراض السادس يدل مفهوم الانقراض الكبير إلى حدث وجيز في سلّم الأزمنة الجيولوجية (بضعة الملايين من السنوات) يسجّل خلاله انقراض 75% – على أقل تقدير – من الأجناس الحيوانية والنباتية من سطح الأرض ومن المحيطات. ومن بين الخمسة أحداث التي تم إحصاؤها، أشهرها الانقراض الطباشيري-الثلثي، الذي سجل انقراض الديناصورات منذ 66 مليون سنة. ويعتبر عالم البيولوجيا الأمريكي بول إهرليش أننا دخلنا اليوم مرحلة الانقراض الكبير السادس (رغم أن الأضرار المسجلة لحد الآن، من حيث عدد الأجناس المنقرضة، أقل بكثير من الخمس فترات السابقة): 40% من ثدييات الكوكب قد تكون شهدت تقلصا للمساحات التي تتوزع فيها بنسبة 80%، بين 1900 و2015.

التنوّع التكنولوجي يُمكّن التنوّع البيولوجي من قيس عدد الأنظمة البيئية، والأجناس والجينات، والتفاعل بين هذه المستويات الثلاثة، في وسط مُعيّن. وتطبيقا لمبدأ المماثلة، فإن التنوّع التكنولوجي يحدّد عدد الأجسام التكنولوجية والمواد المُستعملة لصناعتها.

الأحافير التكنولوجية الأحافير هي البقايا المُعدنة للأفراد الذين عاشوا في الماضي. وتطبيقا لمبدأ المماثلة، فإن الأحافير التكنولوجية هي بقايا الأجسام التكنولوجية.

المحيط التكنولوجي المحيط التكنولوجي هو الجزء المادّي من المحيط البيئي المُشوّه بالتغييرات التي تسبّب فيها البشر: هو نظام مُترابط على المستوى العالمي، يتضمّن الإنسان، والحيوانات الأهلية، والأراضي الفلاحية، والآلات، والمدن، والمعامل، والطرقات والشبكات، والمطارات...

المجالات بالنسبة للعالم الروسي فلاديمير فرنادسكي المختص في المعادن، ومُخترع مفهوم المجال الحيوي سنة 1926، يتكوّن كوكب الأرض من تشابك خمسة مجالات مُختلفة: المجال الأرضي وهو نواة مكونة من الصخر والماء، والمجال الحيوي المُتكوّن من جميع الكائنات الحيّة، والجوّ وهو الغلاف الغازي الذي يتكوّن منه الهواء، والمحيط التكنولوجي الناتج عن النشاط البشري، ومجال الوعي البشري الذي يضمّ مجموعة الأفكار. وقد أُضاف لاحقا بعض المؤلفين إلى القائمة مفهومي المحيط المائي (جملة المياه الموجودة فوق الكوكب) والمحيط الجليدي (الثلوج).

طلع الفجر على رودوتا دانيل. تخرج كلّو إلى الغابة لجمع الحطب. عمرها لا يتجاوز 13 سنة. هي الابنة الثانية لعائلة أثيوبية تعدّ أربعة أطفال، و هي مكلفة بأغلبية الأشغال المنزلية، خاصّة منذ أن تزوّجت أختها الكبرى البالغة من العمر 18 عاما وأنجبت طفلا.

© Ignacio Marín

يوم عادي

في حياة كلّو

تعود كلّو إلى المنزل، وتُعد القهوة

نص: كاترينا مركيلوفا

صور: إنياسيو مارين

إذا كانت الفتاة كلّو، بطلة هذا التقرير الصحفي المُصوّر الذي أُنجز في نوفمبر 2017، ترتاد المدرسة اليوم، فلأنها محظوظة. إذ أن 30،4% فقط من الفتيات الأثيوبيات اللاتي في سن الدراسة في المعاهد الثانوية تزاول التعليم بالفعل. (*معهد اليونسكو للإحصاء*، 2015).

لقد اجتازت كلّو، المراهقة البالغة 13 سنة، أول خطوة في طريق التمتّع بحقها الأساسي في التعلّم: فهي لم تنقطع عن التعليم الابتدائي مثل 61% من فتيات بلادها (*معهد اليونسكو للإحصاء*، 2014). فهل ستتوصّل إلى اقتحام المرحلة الثانية من التعليم الثانوي؟ ذلك أن 17% من الفتيات (المعدل الإجمالي للالتحاق بالمدارس*) تجاوزت تلك العقبة في سنة 2015.

في بلادها، رغم المعدّل المرتفع نسبيا لالتِحاق الفتيات بالمدارس في المرحلة الابتدائية – 82% سنة 2015 – فإن نصف الفتيات فقط، من سن 15 إلى 24 عاما، قادرات على قراءة وكتابة وفهم نصّ بسيط وقصير يتعلق بحياتِهن اليومية. وهي النتيجة المنطقية للافتقار الحاد للمعلّمين: معلّم واحد لـ55 تلميذا في التعليم الابتدائي سنة 2011.

هل سيتعرض الأخ الأصغر لكلّو لمثل هذه الحواجز في مسيرته الدراسية؟ سوف يكون له حظّ أوفر بقليل للدخول إلى المدرسة الابتدائية (بلغت نسبة الالتحاق بالمدارس 88،5% سنة 2015)، وإلى المعاهد الثانوية أيضا (31،4% في 2015).

وسوف يقضي دون شك سنة إضافية في المدرسة: يبلغ معدل الحياة المدرسية** 8,9 سنة في 2012، مقابل 7,9 للفتيات.

رغم التساوي العددي شبه الكلّي بين الجنسين في التعليم الإلزامي (من 7 إلى 14 سنة)، فإن الوضع في أثيوبيا ليس على ما يُرام، إذ أن 2،2 مليون طفل و4،6 مليون شاب مراهق (2015) لا يُزاولون التعليم في هذا البلد الأفريقي الواقع جنوب الصحراء والذي يعد 102 مليون ساكن.

أما على الصعيد العالمي، فيبلغ اليوم عدد الأطفال الذين لا يرتادون المدارس 59 مليون طفل أي بنسبة 9% من الشريحة العمرية التي هي في سن التعليم الابتدائي. وأكثر من نصف هؤلاء الأطفال يعيشون في جنوب الصحراء الأفريقية، وهي المنطقة التي يسجّل فيها الإقصاء عن التعليم أعلى النسب. من بينهم 17 مليون فتاة. وفي تلك المنطقة، 9 ملايين من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين 6 و11 سنة سوف لن تطأ أقدامهن المدارس أبدا، مقابل 6 ملايين من الفتيان (معهد اليونسكو للإحصاء).

تُمثّل المساواة بين الجنسين الغاية الأولى من *الهدف 4 للتنمية المستدامة* الذي يسعى إلى ضمان التعليم الجيد المنصف والشامل للجميع وتعزيز فرص التعلّم مدى الحياة للجميع في أفق 2030. ولقد تم تكليف اليونسكو، بوصفها المنظمة الأممية المتخصصة في التعليم، بإدارة *إطار العمل في التعليم 2030*، الذي تمّ اعتماده سنة 2015. وتعود المسؤولية الأولى لإنجاز هذا البرنامج إلى الحكومات. وتدعم اليونسكو، مع شركائها، من خلال النصائح في مجال صياغة السياسات المُنسّقة، والمساعدة التقنية، وتدعيم القدرات، ومتابعة التطورات الحاصلة عالميا وإقليميا ووطنيا.

* المعدل الإجمالي للالتحاق بالمدارس: عدد الطلبة المتمدرسين في مستوى تعليمي معيّن، بقطع النظر عن السنّ، مُقدّم في شكل نسبة مئوية من مجموع السكان المنتمين للشريحة العمرية النظرية التي تتناسب مع ذلك المستوى التعليمي.

** معدل الحياة المدرسية: العدد المُحتمل للسنوات التي يفترض أن يقضيها الطفل في النظام الدراسي والجامعي.

استحمام في الصباح

كلّو تستعد للذهاب إلى المدرسة، بعد أن جهزت فطور الصباح وقامت بتنظيف المنزل. كانت أحيانا تصل مُتأخّرة إلى المدرسة بسبب التزاماتها المنزلية

في القسم، ثلاث إلى خمس فتيات يتقاسمن نفس المقعد

تقول أنا سنداغورتا، مديرة جمعية بابلو هورسمان: «إن ثلثي صديقات كلّو يُجبرن على الزواج في سنّ مُبكرة، وأغلبهن يُغادرن المدرسة مباشرة بعد الزواج».

بعد عودتها إلى المنزل، تُجهز كلّو الطعام للعائلة. وحسب التقاليد، تُعتبر المهامّ المنزلية "تكوينا" للفتيات ضروريا لحياتهن في المستقبل كزوجات وأمهات

تنتظر كلّو والدها حتّى ينتهي من تناول الطعام كي تقوم بغسل الصحون

بعد الانتهاء من غسل الصحون، تذهب كلّو لجلب الماء من البئر الوحيدة في القرية. والانتظار كثيرا ما يطول

العودة هي أيضا طويلة. هذه المسافات تُعرّض العديد من الفتيات إلى خطر التعنيف الجسدي والجنسي

وحان وقت غسل الملابس

انتهت الأشغال المُرهقة. ويمكن أخيرا لكلّو، في هذا الوقت المُتأخّر، أن تتفرّغ لواجباتها المدرسية على ضوء مصباحها الصغير

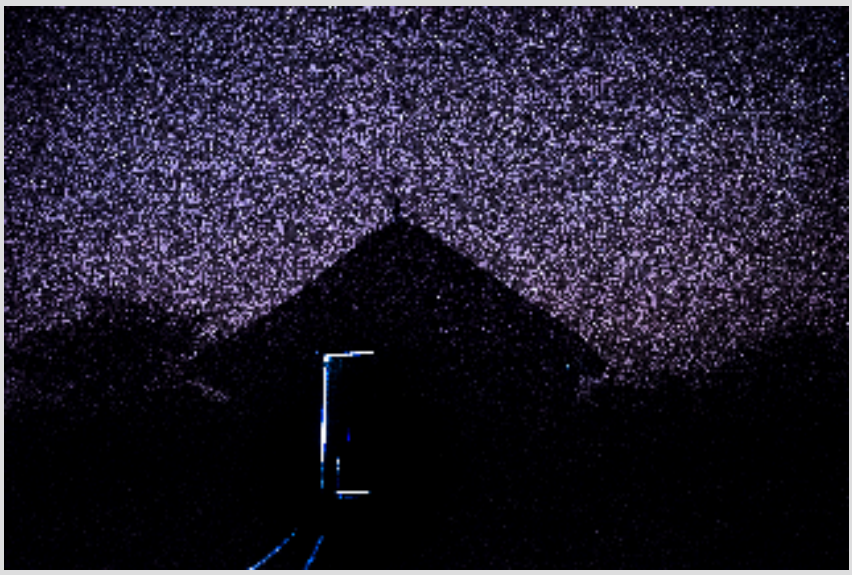

أسدى الليل غطاءه المظلم مصحوبا بوعود النجوم على منزل كلّو. في انتظار يوم جديد

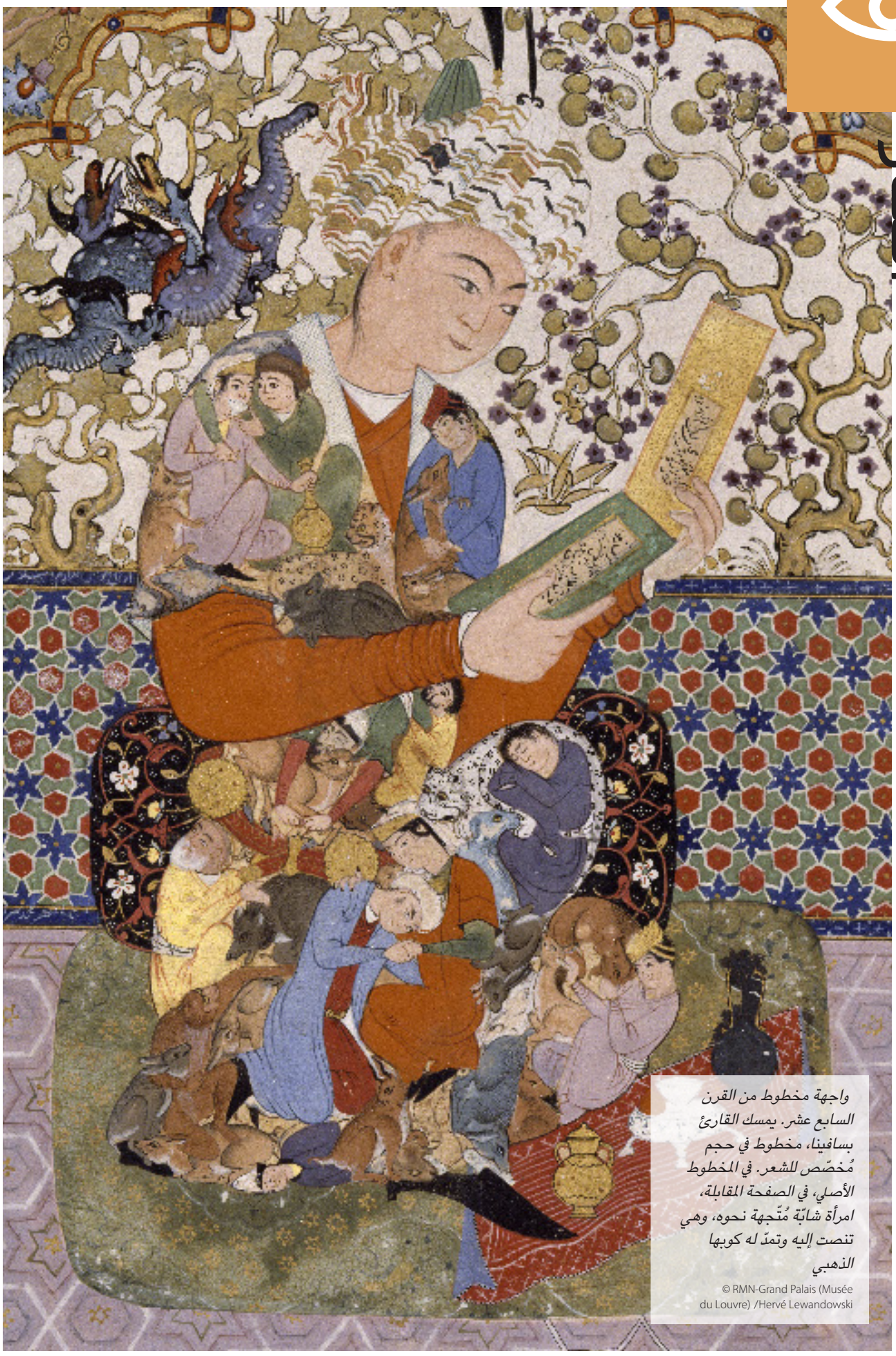

واجهة مخطوط من القرن السابع عشر. يمسك القارئ بسافينا، مخطوط في حجم مُخصّص للشعر. في المخطوط الأصلي، في الصفحة المقابلة، امرأة شابّة مُتّجهة نحوه، وهي تنصت إليه وتمدّ له كوبها الذهبي

© RMN-Grand Palais (Musée du Louvre) /Hervé Lewandowski

نحن، خدم كوكب

الأرض ومستأجِروه

بقلم سليمان بشير دياني

ردّا على التحدّي الذي تطرحه الأزمة البيئية العالمية، أصبح من الملح الاعتماد على رصيد الأدبيات الفلسفية والروحانية للبشرية، لما تُوفّره لنا من جميل العبر حول ضرورة رعاية الحياة بكافة أشكالها. وهذا ما يقوم به سليمان بشير دياني في هذا المقال حيث تتلاقى الرواية الفلسفية لمُثقّف أندلسي من القرن الثاني عشر مع عبارات من الحكمة الأفريقية و تأمّلات لفلاسِفة من الغرب. ويحذر الفيلسوف السينغالي: لسنا بأسياد الأرض ولا بمالكيها!

من خلال ركن «أفكار» تساهم رسالة اليونسكو في الاحتفال باليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية (21 مايو) واليوم الدولي للتنوع البيولوجي (22 مايو).

غايتي في هذا المقال هي إمعان التفكير في أزمة أساسية، أعني الأزمة البيئية ـ وأعتبر أننا متفقون على أنها سمة العصر الذي نعيشه – وذلك من خلال تبيين ما يُوفّره تاريخ الفلسفة من إيضاحات وتوجيهات حول الإجراءات التي يجب اتخاذها لمواجهتها. وأريد القول هنا، بالتحديد، أين يتمثّل التواصل بين الطريقة التي تتوخّاها الفلسفة لمساعدتنا على وضع سياسة للإنسانية، وبين طريقتها في إنارة السبيل نحو «*تطوير إنسانية الأرض*»، حسب تعبير الفيلسوف وعالم الدين الفرنسي بيار تيلار دو شاردان (1881–1955). هذه العبارة تُفيد في نظري وفي هذا السياق، واجب الإنسان ومسؤوليته في العمل بما تقتضيه الأمور، منذ اللحظة التي يعي فيها بأن الطبيعة قد عُهدت إليه كما عُهدت إلى الإنسانية القادمة. وهو ما يحملني إلى الامتناع عن اعتبار نفسي «*سيّدها ومالكها*»، كما جاء في العبارة الشهيرة للفيلسوف الفرنسي للقرن السابع عشر روني ديكارت.

حول هذه النقطة المتعلّقة بفلسفة هي في الآن نفسه روحانية وبيئية، أودّ التذكير بمقولة المثقّف الأندلسي أبو بكر ابن طُفيل (1105–1185)، والتي عبّر عنها بطريقة بارعة في مُؤلّفه المرجعي حيّ *ابن يقظان*. في هذه الرواية الفلسفية، يشرح ابن طفيل أن بالنسبة للإنسان، تحقيق إنسانيته بالكامل يعني إدراكه الوعي بالبيئة المحيطة به، وهذا الوعي هو الذي يُمكّنه من فهم المسار الذي يرسم مصيره والمسؤولية المنوطة بعهدته لحماية الحياة على الأرض.

الإنسان المثالي

بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية سنة 1671 تحت عنوان *فيلوزوفوس أوتوديداكتوس*، ثم إلى الإنجليزية، أصبح حي *ابن يقظان* مصدر إلهام العديد من الكُتّاب، مثل الإنجليزي دانيال ديفو، مُؤلّف رواية *روبنسون كروزو*. فرواية الفيلسوف الأندلسي تروي، بالفعل، قصّة بقاء الطفل «حي» على قيد الحياة، وهو طفل ترك في جزيرة لم تسجل أبدا أي حضور بشري، وقد احتضنته غزالة وتولّت حمايتَه وتغذيتَه. ولما ماتت الغزالة، تعلّم استخدام يديه وذكاءه العملي ثمّ النظري، في ديناميكية تطوّر الفرد من الحمل إلى المنية، تُلخّص تطوّر العنصر البشري عبر العصور: يتطوّر الطفل كإنسان مثالي أي كإنسان كامل، حسب المفهوم الصوفي الإسلامي. وبعبارة أخرى، فهو يُصبح إنسانا مُكتملا قادرا لا فقط على إدراك أساسيات الحضارة من جديد (النار خاصّة)، وإنما أيضا الاحساس بالسموّ الذي يأخذه إلى البعد الربّاني كفكرة ثمّ كتجربة. ونجد صدى لـ«*فيلوزوفوس أوتوديداكتوس*» في الحوار الفلسفي حول الصفحة البيضاء التي تعني قدرتنا على المعرفة قبل أن تشرع التجربة في تسجيل معارفنا عليها. وهو ما يُؤكّد التواصل بين الفكرة التي ترسمها رواية حي *بن يقظان* وكتاب «*بحث في العقل الإنساني*» الذي ألفه الفيلسوف الإنجليزي جون لوك في القرن السابع عشر .

ونسجل في الأثناء، أن تعليم تاريخ الفلسفة كما يُقدّم في جل الكتب المدرسية، لا يذكر البتة كتابا هاما مثل حي *بن يقظان* لابن طُفيل ولا التقليد الفكري الذي يندرج فيه: وهذا من شأنه أن يحثنا على إيجاد طريقة أخرى لتدريس تاريخ الفلسفة، حتى لا تكون هذه المادة منحصرة في النظرة الأوروبية.

خليفة الله في الأرض

إن أول زعزعة تُحرّك ذكاء الطفل العملي ثمّ النظري، لّما يغمره الحزن أو عدم الفهم في لحظة موت أمه الغزالة، تتمثل في مواجهة السؤال التالي: ما هو ذلك الشيء – الحياة – الذي غادر جسم الأم وجعلها لا تسمع نداء ابنها إلى الأبد؟ وللإجابة عن هذا السؤال، يشرع الطفل حي في تشريح الحيوانات الميّتة، قبل أن يُحاول اكتشاف مصدر الحياة عند الحيوانات التي ما زالت على قيد الحياة، فيبَاشر بتشريحها وهي حيّة، دون أن يعي قساوة فعله بسبب جهله وبراءته.

عمل فني من مجموعة «ويلدر مان» للمصوّر الفرنسي شارل فريجير الذي انطلق في البحث عن «الإنسان المتوحش»، سنة 2011، عبر ثمانية عشر بلد أوروبي

© Charles Fréger (www.charlesfreger.com)

ثمّ يتخلّى عن بحثه بعد أن سلّم بالفشل مرة أخرى. في ما بعد، لما أصبح واعيا كل الوعي بذاته، وبالله، وبالخلق، وبمَكانته الذاتية صلب هذا الخلق وبمَسؤوليته إزاءه، يدرك حي مسؤوليته في السهر على الحياة بكل أشكالها. لن يأخذ في المستقبل من الطبيعة إلا ما هو ضروري لقوته بعد التأكّد من أن القدرة على تجديد الحياة محفوظة تماما، وأن الطبيعة تُعيد إنتاج ما تمن به.

إن تأكيد ابن طُفيل على الوعي البيئي لدى حيّ ابن يقظان هو تصوّر فلسفي للأنثروبولوجيا في القرآن الذي يُعرّف الإنسان بأنه «*خليفة الله في الأرض*». وعبارة «*خليفة*» التي تعني «معوّض»، وقد يكون معناها الأصح «*الملازم*»، أو بصفة أدق «*من يقوم مقام غيره*»، هي عبارة تُعلّم الإنسان ما يجب أن يكون عليه، ومسؤوليته في الحفاظ على محيطه، أي الأرض. وليس لكلمة خليفة في القرآن معنى غير مآل الإنسان، رغم كل ما يمكن تضمين هذه الكلمة اليوم. إن الرسالة الهامة التي يتضمنها كتاب الفيلسوف ابن طفيل هي إذن أن الإنسان هو حارس الأرض، لذاتها وللأجيال القادمة، لأنه قد أوكل إليه أصلا بأن يقوم مقام الإله في الأرض. ونحن اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، في حاجة لاستيعاب هذه المسؤولية، دون أن نعطيها بالضرورة دلالة دينية.

لنؤسس للإنسانية معا

سوف ألخّص ما أقصده في عبارة واحدة: «*أوبونتو*». هذه الكلمة في لغة البانتو التي اشتهرت عالميا بفضل ديزموند توتو ونيلسون مانديلا، يمكن ترجمتها حرفيا بـ«*لنؤسس للإنسانية معا*»، بما يعني تحقيق ذاتي الإنسانية بفضل الآخرين، وفي نفس الوقت، التأسيس لـ«*إنسانية واحدة*» مع الآخرين.

الإنسان الطبيعة (2016)، لوحة مائية
لفرانك لوندانجي

Franck Lundangi/avec l'aimable autorisation © de la Galerie Anne de Villepoix

وبما أنني مُؤتمن على ما يجعل مني قائما مقام الإله في الأرض، أدرك أن «*التأسيس للإنسانية معا*» هو نقيض سلوك المفترس، بل يُحتّم عليّ أن أحافظ على الحياة بصفة عامّة، وأن أعتبر أن الحيوانات بشكل خاص، لئن كانت لا تعبر عن الحقوق التي يُفترض أن يتم الاعتراف بها وكأنها مُعلنة، فإن تلك الحقوق هي فعلية في نظري باعتبار أن إنسانيتي تفرض عليّ واجبات نحو الحيوانات.

لست من أولئك المبالغين – في نظري – الذين يرغبون في القضاء على المركزية البشرية، والذين يعتبرون أن مختلف العهود يجب أن تكون مُمثّلة بذاتها في نوع من «*العقد الطبيعي*» بدل العقد الاجتماعي.

وليس من الضروري «*تذويب*» *الإنسانية لمنعها من التصرّف وكأنها «إمبراطورية وسط إمبراطورية أخرى»*، حسب تعبير فيلسوف آخر من القرن السابع عشر، باروخ سبينوزا، أي لإقناعها بأنها ليست حرّة ولا منفصلة عن مقتضيات الطبيعية. بالعكس، يجب إثبات إنسانيتنا، ولكن إثباتها بالمعنى الذي تكتسيه في الـ «*أوبونتو*». «*أوبونتو*» هو مفهوم فلسفي ذو بعد عالمي، ويبدو لي أنه يجمع في ذاته مغزى الإنسانيات ودورها، وخاصة منها الإنسانيات الفلسفية. ومن خلال هذا العرض للكيفية التي يُمكن للفلسفة أن تنير سبيلنا، أردت طبعا أن أؤكد على مساهمتها، بل وحتى على «فائدتها». لكن قصدي ليس المبالغة في قدرة الفلسفة، ولا التسليم بضرورة وجود مردودية للمعارف لمّا يُنظر إليها فقط من زاوية تطبيقها التقني مع الإلحاح على إمكانيات توظيفها.

لكن، وحيث أن الأمر يتعلّق بالفكر وبالعمل اللذين يخضعان لأزمات عصرنا الكبرى، أردت أن أبيّن أنه في قدرتنا ومن واجبنا الاعتماد على رواية فلسفية كُتبت في القرن السابع عشر في إسبانيا المسلمة، أو على الفكر الفلسفي الغربي أو على عبارة من الحكمة الأفريقية، على حدّ السواء. وحتى نكون قادرين على مواجهة تحديات الأزمنة المتغيّرة، علينا أن نتغذى من كل ما بلغه الفكر الإنساني في كل أنحاء العالم وفي مختلف العصور.

بعبارة أخرى، أردت أن أذكّر بأن الفلسفة والإنسانيات عموما هي التي توجه التعليم نحو غايته القصوى ألا وهي الإنسان التام، المكتمل، الإنسان المثالي، القادر على الاعتماد على معرفة التاريخ ليبتكر لنفسه مستقبلا نحن مدعوّون جميعا إلى بنائه.

سليمان بشير دياني (السنغال) فيلسوف ومُؤرخ لمنطق الرياضيات. وهو أستاذ في جامعة كولومبيا (نيويورك).ألف العديد من الكتب في تاريخ المنطق والفلسفة، وفي الإسلام وفي المجتمعات والثقافات الأفريقية. حصل سنة 2011 على جائزة إدوار غليسان لمجمل أعماله.

نحو «كرولة» مفهوم الإنسانية

بقلم ميراي ديلماس ـ مارتي

كيف يمكن حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي، وفي نفس الوقت الصمود ضد النسبية والإمبريالية، والتوفيق بين عالمية حقوق الإنسان وبين تعدد الثقافات؟ تلقي ميراي ديلماس ـ مارتي، العضوة في معهد فرنسا، على هذه المسألة نظرة الخبيرة القانونية المتخصصة في دراسة تدويل القانون، وتدعو إلى «*الكرولة من خلال التحوّل المتبادل*»، أي إلى إجراء عملية حيوية وتطوّرية تتمثل في التنسيق والانسجام، وفي بعض الأحيان التوحيد، بين الفوارق.

© Minia Biabiany (www.miniabiabiany.com)

صورة مُلتقطة من فيديو «بلو سبيلينغ، تغيير الأفق هو تغيير زمني»، للفنانة الغوادلوبية مينيا بيابياني

تُعد حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي من الأولويات التي حددتها الدول الأعضاء في اليونسكو في بداية الألفية الثالثة. وقد وضعت هذه الدول، بتوقيعها على *اتفاقية عام 2005*، تعريفاً للتنوع الثقافي بوصفه تراثاً مشتركاً للإنسانية لا يتعين حمايته ـ باعتباره كنزاً يتسم بالثبات والدوام فحسب، بل يجب أيضاً تعزيزه لأنه كنز مفعم بالحيوية، وبالتالي فهو قابل للتجديد والتطوير.

ولقد تبوأ التنوع الثقافي بالفعل مكانة التراث المشترك للإنسانية في *الإعلان العالمي لعام 2001*، الذي اعتمده المؤتمر العام لليونسكو بالإجماع في نوفمبر من العام ذاته. ويؤكد هذا الإعلان أن التنوع الثقافي هو بالنسبة للجنس البشري «*ضروري ضرورة التنوع البيولوجي في منظومة الأحياء*».

وكان هذا المؤتمر هو أول اجتماع دولي حكومي كبير يُعقد مباشرةً بعد العمليات الإرهابية التي وقعت في 11 سبتمبر بالولايات المتحدة، وقد حرصت اليونسكو على إعلان رفضها بكل وضوح لنظرية تصادم الحضارات وامتناعها عن تقديس الفوارق.

وأعتبر أن التذكير بهذا السياق يمثل ضرورة قصوى لأننا منخرطون، منذ عام 2001، في صنف من الحروب الأهلية العالمية والدائمة التي تثير حالات من الهيجان العقائدي وترهب مجموعات سكانية بأكملها. ويترتب على ذلك بشكل خاص الهجرة الجسيمة التي نشهدها في الوقت الراهن، فضلاً عن انقباض البلدان المقصودة على هويتها، وانغلاقها في بوتقة خصوصياتها باسم تعرض هويتها الوطنية للتهديد. وكل هذه الأحداث الراهنة إنما تحثنا على إيجاد آليات لتنمية التعدد الثقافي بأكثر نجاعة.

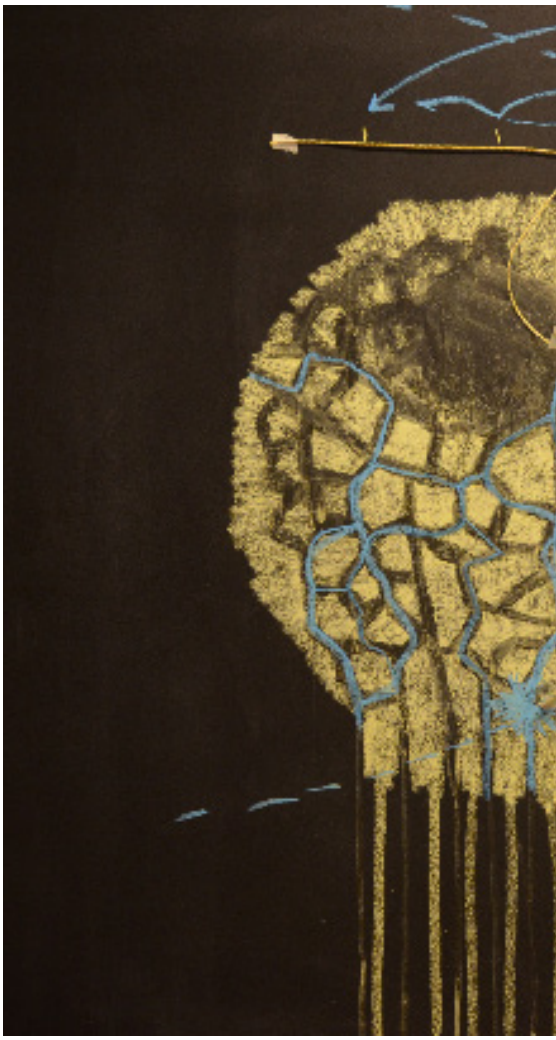

هل يمكن التوفيق بين التعددية والعالمية؟

غير أنه يجب التسليم بأن نص اتفاقية 2005 ينطوي على تناقض ضمني، ليس من السهل حلّه، بين التعددية، التي يصفها إعلان 2001 بأنها «*الرد السياسي على واقع التنوع الثقافي*»، وبين العالمية، المندرجة في *الإعلان العالمي لحقوق الإنسان* الصادر عام 1948، وعلى نطاق أوسع، في قانون حقوق الإنسان.

وفي هذا التناقض الضمني مجازفة مزدوجة، لأنه من خلال الإقرار بمبدأ «*تساوي جميع الثقافات في الكرامة*» (المادة 2 من اتفاقية 2005)، فإن التعددية الثقافية، إن اقتصرت على وضع الفوارق جنباً إلى جنب، قد تفضي إلى شيء من النسبية في القيم، وبالتالي، إلى نحو من نكران العالمية.

وفي المقابل، قد تؤدي عالمية حقوق الإنسان إلى نكران التعددية، إن كان عليها أن تفرض دمج جميع الثقافات وزوال جميع الفوارق. وفي هذه الحالة، قد تكون هذه العالمية الزي الجديد لإمبريالية غير معلنة.

ولقد أدرك واضعو اتفاقية 2005 تمام الإدراك هذه الصعوبة. إذ أنهم أدرجوا مبدأً أساسياً في المادة الأولى من الاتفاقية، وهو أنه «*لا يجوز لأحد التذرع بأحكام هذه الاتفاقية لانتهاك حقوق الإنسان والحريات الأساسية المكرسة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أو المكفولة بموجب القانون الدولي، أو لتقليص نطاقها*».

وبعبارة أخرى، لا يجوز التسليم بوجود الفوارق إلّا إذا كانت تتماشى مع حقوق الإنسان. أما الصعوبة فتتمثل في أن الضمان لا يشمل جميع الحقوق بصورة متساوية. ففي ما يخص «الحقوق غير القابلة للانتقاص»، من قبيل المساواة في الكرامة الإنسانية (منع التعذيب والمعاملات الأخرى غير الإنسانية أو المهينة)، تكون حمايتها مطلقة وتنطبق حتى في حالات الحرب أو الإرهاب، وهذا من شأنه مبدئيا أن يضع حداً مشتركاً لتنوع الثقافات. وهناك حقوق أخرى (الحياة الخاصة، حرية المعتقد) خاضعة لبعض الضوابط إن كان الهدف منها شرعيا وإن كانت الضوابط متناسبة.

ويجوز القول بأن واضعي اتفاقية 2005 قد حددوا هدفاً، ولكنهم لم يصيغوا «*طريقة استعمال*» تسمح بعدم الوقوع في الخلط بين التعددية وبين النسبية، وبين العالمية والإمبريالية.

وبصفتي خبيرة قانونية، فإن إسهامي في التفكير في أدوات التعددية الثقافية، إن لم يكن باقتراح طريقة لاستعمال تلك الأدوات، فيكون على الأقل ببسط بعض السبل التي يمكن اتباعها لمحاولة التوفيق بين التعددية والعالمية، وكذلك بعض الوسائل الكفيلة بالتقريب بين الثقافات.

من المعلوم أن نشوب العديد من النزاعات ناتج عن عدم معرفتنا لغيرنا، لكن غالباً ما نغفل عن البحث عن مصدرها في جهلنا بالثقافة التي ننتمي إليها، رغم أن ذلك يمثل عاملاً أساسياً. ولهذا السبب، يبدو لي أن الأهم هو إتاحة السبل الكفيلة بتوسيع نطاق معارفنا بشتى الثقافات، بما فيها الثقافة التي ننتمي إليها، لأن ذلك يساعد كل واحد منا على تفادي اعتبار أن ثقافته هي التي تشكل المرجع العالمي دون غيرها. وبعبارة أخرى، لا بد من إضفاء طابع التعددية على ما هو عالمي.

ولكن إلى أين سوف تؤدي بنا هذه السبل الكفيلة بتوسيع نطاق معارفنا بمختلف الثقافات؟ إن إجابتي عن هذا السؤال هي: إلى التقارب بين الثقافات. هي خطوة إضافية لا تقتصر على دمج الثقافات، بل على جعلها أكثر تناسقا في ما بينها، لتحقيق ما أسميه «*تنظيم التعددية*».

إضفاء الطابع التعددي على ما هو عالمي

إن المدركات الحسية ـ أي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ـ تشكل أولى الأدوات لاكتساب معرفة حقيقية بمختلف الثقافات. ونحن ندرك إلى أي مدى تسهم حفلات الموسيقي أو المهرجانات، على سبيل المثال، في توسيع نطاق معارفنا من خلال المدركات الحسية.

أما الأداة الثانية فهي تتشكل من التمثلات المعرفية، أي من اكتساب معارف من خلال العقل، وليس بالضرورة عن طريق الحواس، أعني الخطاب التربوي والفلسفي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والقانوني. ومن ذلك مثلا في الدور الذي تضطلع به المكتبات أو المعاهد الثقافية أو الجامعات الشعبية التابعة *للحركة الدولية لإغاثة المنكوبين والمعوزين ـ العالم الرابع*.

وتستند هذه الجامعات إلى تلاقح المعارف، وهي فكرة أود أن أتوقف عندها لحظة وجيزة. منذ عام 1972، تراهن جامعات العالم الرابع على تقاسم المعارف في ما بين أهل العلم وأصحاب المعرفة، أي بين المعارف العلمية والمعارف المكتسبة من تجربة المعيشة. ويقوم التعاون بين المعاهد الثقافية هو أيضاً على فكرة التوافق بين عدة طرق معرفية. في المجال الفني، هناك عدد كبير من الأمثلة الدالة على هذا النوع من التوافق أذكر منها المؤلف الموسيقي الفرنسي *بيير بوليز*، الذي يستعمل دروس الرسام السويسري بول كلي في مدرسة «*باوهاوس*» بمدينة فيمار، في ما بين 1921 و1931، لتوضيح عملية التأليف الموسيقي، في نهاية الثمانينات من القرن الماضي.

إن التأليف بين ما هو حسي وبين ما هو عقلاني ـ علماً وأن هاتين القدرتين مرتبطتان ـ هو الذي يفتح دون شك الآفاق الأوسع لمعارفنا المتعلقة بمختلف الثقافات. وفي الوقت الراهن، تتيح التكنولوجيات الجديدة مثل هذا التأليف، ويتجلّى ذلك بصفة رائعة في متحف ثقافات العالم في غوتنبرغ (السويد)، الذي افتتح عام 2004، أو في متحف حضارات أوروبا والبحر المتوسط، الذي افتتح في مارسيليا (فرنسا) عام 2013.

ومهما كان السبيل المتبع ـ حسياً أو معرفياً أو جامعاً بينهما ـ فثمة وسائل عديدة متاحة لنا لتنظيم التعددية، دون القضاء عليها.

تنظيم التعددية

وحتى نتفادى اعتبار القيم على أنها نسبية وإمبريالية، من الضروري اتباع دينامية تفاعلية وقابلة للتطوير. ويجب إدراك التقارب بين الثقافات باعتباره عملية تتمثل في حركة تحث على تجاوز الصور المجازية الثباتية (اعتبار حقوق الإنسان كأسس، أو قواعد أو ركائز أو جذور لثقافات مختلفة) وتفضيل صورة مجازية تقدم حقوق الإنسان باعتبارها لغة مشتركة للإنسانية. وتقترح هذه الصورة ثلاث عمليات يتزايد أثرها الدينامي: التبادل بين الثقافات (الحوار)، ثم البحث عن أوجه التكافؤ (الترجمة)، إلى التحول المتبادل (التهجين).

الحوار، أي التبادل بين الثقافات، يتيح تحسين فهم الغير والتعرف عليه، وهو يُيسر التقارب، لكنه لا يضمن حدوثه. ومن الأمثلة على ذلك، ألخص في ما يلي الحوار الذي دار بين القضاة بشأن عقوبة الإعدام، وهو حوار أثير عام 1989 إثر تفسير جرئ للمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان. فقد أصدرت هذه المحكمة قراراً يقضي بأن تسليم شخص حُكم عليه بالإعدام للولايات المتحدة إنما يتعارض مع منع العقوبات أو المعاملات غير الإنسانية أو المهينة. ومن خلال احتمال تطبيق هذا القرار القضائي في مختلف البلدان الأخرى، فقد كان من المتوقع أن يؤثر في العالم بأسره. ويبدو أن هذا القرار يسّر تراجع المحكمة العليا في كندا عام 2001 التي استندت إلى قرار المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، وكذلك في جنوب أفريقيا حيث تم الأخذ به تأييداً للقرار القاضي بأن عقوبة الإعدام تتعارض مع منع المعاملات القاسية أو غير الإنسانية أو المهينة (المحكمة العليا، 1995).

غير أن الحوار يخضع لمشيئة الجهات الفاعلة وهذا يعني أن إسهامه في التقريب بين الثقافات يقتصر على تنسيق الفوارق.

© Gilles Elie-Dit-Cosaque (www.lamaisongarage.fr)

ذاكرة المزيج المكرول، بالمفهوم الجغرافي والروحي، حسب مُؤلفه، الفنان والسنيمائي المارتينيكي جيل إلي-ديت-كوزاك. ذاكرة وُلدت من «معطيات من العالم غير متناسقة تماما، تلتقي في مكان وفي زمان مُعيّن، وتصنع معطى ثقافيا جديدا معقّدا ومُتعدّدا، بسرعة مذهلة»، حسب تعبير

أما الوسيلة الثانية، التي تذهب إلى ما أبعد في الاعتراف بالقيم المشتركة، فهي الترجمة. ويعتبر الفيلسوف الفرنسي بول ريكور أنها «معجزة» حقيقية، إذ أنها «*تخلق التشابه حيث لا يوجد، في ما يبدو، سوى التعددية*». وأرى، بالإضافة إلى ذلك، أن معزجة الترجمة تكمن في احترامها للفوارق، وفي بحثها عن أوجه التكافؤ التي من شأنها أن توفق بين هذه الفوارق. إن الترجمة هي وسيلة لتحقيق التآلف بين الفوارق، ومنهج *يساهم في التقارب* على منوال التناغم الموسيقي، كما عرّفه أفلاطون في *محاورة المأدبة*، حيث يقول: «*انطلاقاً من عناصر متناقضة في البداية، مثل النغمة الخفيضة والنغمة الحادة، فإن الفن الموسيقي، من خلال التوفيق بينهما، ينتج التناغم*».

إلا أننا في الكثير من الأحيان نتعثّر بسبب عدم قابلية بعض النصوص للترجمة وما ينجر عنها من سوء الفهم. وفي القانون الدولي أمثلة متنوعة تدل على ذلك. وسأكتفي بضرب مثال واحد: يرد في المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن جميع «*الناس [...] قد وُهبوا العقل والوجدان [...]*». وفي البداية، لم تُذكر إلّا كلمة «*العقل*». غير أن أحد *محرري الإعلان*، المندوب الصيني *بينغ شون شانغ*، لاحظ أنه إذا أردنا أن يتسم الإعلان بطابع عالمي، فإن مفهوم العقل وحده لا يكفي. ومن ثم، اقترح إضافة الكلمة الصينية «ليانغشين» التي تُرجمت إلى «*وجدان*». وفي الواقع، لا تترادف كلمتي «*ليانغشين*» و«*وجدان*» إلا بنسبة ضعيفة، لأن الكلمة الصينية مشتقة من الحروف «ليان» و«*شين*» وتشير إلى الوجدان الأخلاقي بالمعنى الكونفوشيوسي، أي وجدان يعطي الأولوية للغير.

وحتى نتمكن من حل هذا النوع من الصعوبات، يجب أن نمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، من خلال تطبيق الوسيلة الثالثة المذكورة أعلاه، ألا وهي: التهجين أو – إذا أردنا تفادي أي سوء فهم محتمل – «*الكرولة*». وأستخدم مصطلح «*الكرولة*» بالمعنى الذي اعتمده الشاعر *إدوار غليسان* (1928–2011)، عندما اقترح انفتاح فنوننا الشعرية الخاصة بعضها لبعض. وبعبارة أخرى، تتيح «*الكرولة*» توحيد الفوارق من خلال دمجها في تعريف مشترك.

ويقول إدوار غليسان في مؤلفه *لا كوهي دي لامنتان* (2004): «*إن الكرولة ليست مجرد آلية لتمازج السلالات. بل هي تمازج يفضي إلى ما هو غير متوقع*». ومن ثم فإن الوصول إلى ما هو غير متوقع إنما يعني اكتشاف معنى جديد مشترك حقاً، يتجاوز الحوار والترجمة ولو أنهما هما اللذان يسمحان بالوصول إليه. إن «*الكرولة*» هي الوسيلة الكفيلة بتجاوز الفوارق.

إيدوار غليسان. لامبو هي أيضا مذكّرة شخصية استيهامية، يختلط فيها الفرد مع المجموعة في صفحات متبعثرة

إن الانتقال من المجال الشعري إلى المجال القانوني سوف يتيح لي التعمق في مفهوم ذي طابع عالمي، لا يزال مدلوله في تطور، ألا وهو: الجريمة ضد الإنسانية.

نحو تحوّل متبادل

ينطوي مفهوم الجريمة ضد الإنسانية على بُعد جماعي ــ «*هجوم واسع النطاق أو ممنهج ضد مجموعة من السكان المدنيين*» ــ ويحمل معناه إزالة الشخصية الفردية للضحية. ويندرج ضمنياً هذا المفهوم، الذي استخدم للمرة الأولى في النظام الأساسي لمحكمة نورمبرغ العسكرية عام 1945، في التصور الغربي للإنسانية الذي يستند إلى تفرّد كل كائن إنساني وانتماء كل الأفراد على قدم المساواة إلى المجتمع الإنساني.

ومع ذلك، اتسع نطاق هذا المفهوم تدريجياً ليشمل أعمال التدمير التي تتعرض لها الممتلكات الثقافية. ففي عام 2001، اعتبر قضاة المحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوغسلافيا السابقة أنه عندما يتم تدمير المؤسسات المخصصة للدين أو التعليم وإلحاق الضرر بها بصفة متعمّدة مع نية التمييز، فإن ذلك يُعتبر بمثابة «*هجوم على الهوية الدينية ذاتها لشعب ما*.

ويصوّر هذا الفعل في حد ذاته بصفة تكاد أن تكون مثالية، مفهوم "الجريمة ضد الإنسانية"، لأن في الواقع، البشرية جمعاء هي التي تضررت من تدمير ثقافة دينية خصوصية وما يتعلق بها من مواد ثقافية». [المحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوغسلافيا السابقة، المدعي العام ضد داريو كوردتش وماريو تشيركيز، IT- 95 – 14 /2، الحكم الصادر في 26 فبراير 2001].

والمسألة مطروحة أيضاً بالنسبة للعراق. ويعتبر الحقوقي المنحدر من أصل إيراني، بيجمان بورزند، أن «*تدمير المواد الثقافية التي تسرد تاريخ شعب ما إنما هي طريقة واضحة لاجتثاث جذوره وتجريده من أصوله، فضلاً عن تدمير روحه*» [إذاعة نوتر دام، 6 مارس 2015]. كما اعتبر غيره من المعلقين أن ذلك يعد «جريمة ضد تاريخ البشرية».

ومن أجل ضمان «*كرولة*» حقيقية من خلال التحوّل المتبادل، يجب إدغام ثقافات تعزز الصلة بين الأفراد الذين ينتمون إلى مجتمع وطني واحد، مثلما يوحي به مفهوم «*أوبونتو*» في جنوب أفريقيا، أو الكلمة اليابانية «*أوشي – سوتو*» (أعضاء المجموعة والآخرون)، أو الكلمة الكونفوشيوسية «*ليانغكشين*» التي سبق ذكرها أعلاه.

كما يجب السعي لمشاركة الثقافات التي تفرض على الإنسان واجبات نحو الطبيعة، من قبيل الثقافات الحامية لـ«باشاماما» (الأرض ـ الأم) المدرجة في دساتير كل من الإكوادور وبوليفيا. وهذا هو النحو الذي قد يجب علينا اتباعه حتى نتمكن من فهم الاقتراح المتداول حاليا والمتعلق بتوسيع نطاق مفهوم الجريمة ضد الإنسانية ومفهوم الإبادة الجماعية حتى يشملا «الإبادة البيئية»، أي إلحاق أضرار جسيمة لا رجعة فيها بتوازن النظام الإيكولوجي.

ومن أجل إضفاء طابع عالمي حقيقي على مفهوم الجريمة ضد الإنسانية، لا بد من إثراء الرؤية الغربية للإنسانية بتقاليد أخرى.

إن التقارب بين الثقافات، وهو موضوع العقد الدولي الجاري (2013 – 2022)، يمضي عبر سبل عديدة تتيح مقاومة النسبية والإمبريالية في نفس الوقت، والتوفيق بين عالمية حقوق الإنسان وتعدد الثقافات. وهذه هي السبل التي تؤدي إلى تطوير البعد الإنساني بشكل متبادل.

إرّانس (تجوال)، 2012، للفنانة الهايتية سرجين أندري

© Sergine André / Collection privée de Maurice Depestre

ميراي ديلماس ــ مارتي (فرنسا) عضوة في معهد فرنسا وأستاذة فخرية في معهد كوليج دي فرانس. وقد أسست جمعية البحوث الجنائية الأوروبية، كما أنها الرئيسة الفخرية لمرصد فاروس لتعدد الثقافات والأديان، وعضوة في المجلس الأعلى للعلم والتكنولوجيا وعضوة في مجلس إدارة المكتبة الوطنية الفرنسية. وقد وضعت عدة مؤلفات تتناول القانون الجنائي، وتشريعات حقوق الإنسان وعولمة القانون، من بينها:

القوى المتكررة للقانون، في أربعة أجزاء (2004 – 2011)

الصمود والمسؤولية واستباق الأحداث (2013)

في مهب الرياح العالمية. دليل مختصر للغوص في محيط العولمة (2016)

من التسريع الكبير إلى التحول الكبير (2017))

رسالة للشباب

© Magule Wango

من لا يعرف من أين أتى، لن يعرف إلى أين يذهب، *للرسام الموزمبيقي ماغول وانغو*

بقلم عبد الرحمان أ. وابري

«قال حكيم أفريقي متقدم في السن: *في حقيقتي ولك حقيقتك، أما الحقيقة فتوجد في الوسط. وحتى نقترب منها، يجب على كل واحد منا أن يتخلّى عن شيء من حقيقته ليخطو خطوة نحو الآخر*». تلك هي إحدى العبر التي كان أمادو همباطي با يأمل في نقلها إلى الشباب في قارّته وفي أنحاء أخرى من العالم، في رسالة كتبها في الثمانينات. وهي رسالة تأخذ اليوم طابعا تنبّئيًا.

في شمال الصحراء كما في جنوبها، جزء كبير من الشباب الأفريقي لم يعرف إلا حياة منعدمة الاستقرار، يدفعهم البؤس وغياب الأفق نحو المغامرة والمجازفة بأجسادهم. وتبدو لهم مواجهة الصحراء والمُهرّبين والأسلاك الشائكة وأمواج البحر الأبيض المتوسط أيسر من تحمّل حياتهم المهمّشة وحالة التدهور التي يعيشونها. ما العمل؟ التحرّك، الهروب، الهجرة حتى الهلاك في البحر إن لزم الأمر. عند استجوابهم، يفسّر الناجون من الغرق أنهم لجؤوا إلى هذا الحل لغياب موارد الرزق. إنّ عبور الصحراء قصد التعرض للبيع في سوق العبيد في ليبيا أو الالتحاق ببوكو حرام، لا يمثل خيارا ولا مشروع حياة.

لم يحظ هذا الشباب الذي نشأ في الأحياء الفقيرة بالاستفادة مما تركه الأسلاف وما جادوا به من نصائح ودروس لتسيير الحياة. ومن بينهم أحد أبرز أعلام القارة الأفريقية بأكملها، وهو المالي أمادو همباطي با (1901–1991) الذي تُسند إليه المقولة الشهيرة «*عندما يموت عجوز في أفريقيا، فكأنّما احترقت مكتبة*»، وفي الحقيقة المقولة الصحيحة كالتالي: «*أعتبر وفاة كل واحد من هؤلاء الأسلاف بمثابة حريق لمخزون ثقافي لم يتم استغلاله بعد*». قالها في غرة ديسمبر 1960. وكان أمادو همباطي با آنذاك يمثل بعثة مالي لدى المؤتمر العام لليونسكو، إبان انخراط بلاده في المنظّمة كدولة مستقلّة.

> **كما أن جمال السجّاد يتأتّى من تنوّع ألوانه، فإن تنوّع البشر وثقافاتهم وحضاراتهم هو الذي يُعطي للعالم روعته وثراءه. يا له من عالم ممل ورتيب ذلك العالم المنمّط الذي يكون فيه كل الناس منسوخين من نفس القالب، يُفكّرون ويعيشون بنفس الطريقة! إن لم يعد لنا ما نكتشفه لدى غيرنا، فكيف نُثري أنفسنا؟**

كل الدول، قويّة كانت أم ضعيفة، غنيّة أو فقيرة، هي من هنا فصاعدا مترابطة اقتصاديا على الأقل، إن لم يكن في مواجهة مخاطر حرب دُوليّة. فالناس، أحبّوا أم كرهوا، مُبحرون على نفس المركب، وإن هب إعصار فسوف يهدد الجميع في نفس الوقت. ألا يجدر محاولة التفاهم بين بعضهم البعض والتعاون قبل فوات الأوان؟»

ويشجع حكيم بندياغارا الشباب الذي ينمو ويتكوّن في عالم ثنائي القطب حيث تتجابه الكتل وتُمزّق بعضها البعض، على أن يسعى شيئا فشيئا «لإبراز عقلية جديدة، مُوجهة أكثر نحو التكامل والتضامن، سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى العالمي». ولا بد من التذكير تكرارا، بأن «في هذا العصر المليء بشتى أنواع التهديدات، على الناس أن يُركّزوا على ما يجمعهم بدل أن يركزوا على ما يُفرّق بينهم، مع احترام هوية كل منهم. في التلاقي مع الآخر والإصغاء إليه إثراء، حتى من حيث انتعاش الذات، أكثر من الصراعات أو النقاشات العقيمة لفرض وجهة نظر خاصة.»

وقد أشاد في خطابه بـ«الآثار الشفوية الضخمة التي يجب إنقاذها من الاندثار بعد وفاة الأسلاف الذين ينفردون في الإلمام بهذا التراث والذين بلغوا خريف العمر».

تراودني فكرة: كنت أتمنّى، وأنا في سن المراهقة، أن يكون أمادو همباطي با هو جدّي. لكن النزاهة تقتضي مني أن أعترف بأن في تلك الحال لم أكن لأُصغي إلى نصائحه. إذ لم يكن يستهويني الشيوخ حاملي العبايات الأفريقية وذوي الشعر الأبيض والقيم التقليدية. بل كنت أدين مسبقا هذا العالم الذي كان يبدو لي سلبيا وعتيقا، وكنت أرفض مبدئيا قواعده. وكنت على خطأ فظيع.

إذا كان عالم اليوم، في أفريقيا أو خارجها، في حاجة ملحّة إلى رموز المعرفة مثل مؤلف مصير *فانغران الغريب*، فذلك يدل على أن القطيعة بين الأجيال قد حصلت. وأن الحلقة العائلية تقلّصت كثيرا. بل أن القاعدة الصلبة التي كانت تحمل اليقظة والتواصل لم تعد كما كانت من قبل.

شبابنا العزيز

قبل ست سنوات من وفاته عام 1991، وجّه هذا الكاتب المالي الكبير رسالة إلى «*الشباب*» كانت أشبه ما يكون بالوصيّة، يقول فيها: «*إن مُحدّثكم هو من أوائل مواليد القرن العشرين*». ثمّ يُضيف هذا التحذير: «*أيها الشباب، أواخر مواليد القرن العشرين، إنكم تعيشون عصرا مُروّعا لما فيه من تهديدات على البشرية، وهو في ذات الحين عصر مُشوّق لما يتّسم به من إمكانات الانفتاح على مجال المعارف والتواصل بين الناس.*

سوف يشهد جيل القرن الحادي والعشرين تلاقحا رائعا بين الأجناس وبين الأفكار. وحسب طريقة استيعابه لهذه الظاهرة، فسوف يضمن بقاءه أو يتسبب في فنائه بانخراطه في نزاعات دموية. في هذا العالم الحديث، لن يتمكّن أحد من الاعتصام في برجه العاجي.

ماشو نني/طاووس الكاريبي، 2014، عمل فني من مجموعة النظارات المنحوتة للفنان الكيني سايروس كابيرو

© Courtesy of the artist and SMAC Gallery

كل واحد يختلف عن الآخر، سواء تعلّق الأمر بالأشخاص، أو بالأمم، أو بالأجناس، أو بالثقافات. لكن لدينا جميعا وجه شبه، وهو ما يجب البحث عنه لأنه يعرّفنا أكثر بأنفسنا ويفتح لنا باب الحوار مع الآخر. وبذلك بدل أن تكون عامل تفرقة، تتحول اختلافاتنا إلى عامل تكامل ومصدر ثراء مُتبادل.

وفي أسلوب بليغ ودقيق، يستعمل الكاتب المالي فن التشابيه الجذابة والهادفة، ليقول: «*حياة الإنسان مثلها مثل شجرة ضخمة، وكل جيل هو بمثابة البستاني الذي يعتني بها.*»، ثم يُضيف: «*البستاني الماهر ليس ذلك الذي يقتلع الشجرة، وإنما هو من يقلم الأغصان الميّتة في الوقت المناسب ويقوم عند الاقتضاء بالتطعيم المفيد بشكل سليم. فمن يقتلع الجذع كأنما انتحر أو تخلّى عن شخصيّته ليتقمّص بتصنّع شخصية الغير دون أن يفلح أبدا في تحقيق ذلك على الوجه الأكمل.* و في هذا الصدد، لنتذكّر المقولة المأثورة: «*قد تطفو القطعة الخشبية التي بقيت طويلا في الماء، لكنها لن تُصبح أبدا تمساحا!*». وهكذا «*إن كانت أنفسكم ثابتة في جذورها، فسوف تكون لكم القدرة، دون خوف ولا ضرر، على الانفتاح على المحيط الخارجي، سواء للعطاء أو للقبول.*»

ويُنبّهنا أمادو همباطي با، وهو المدافع عن المجتمع الأفريقي التقليدي ــ مع الإعتراف بـ«*عيوبه وتجاوزاته ونقاط ضعفه*» ــ إلى أن هذا المجتمع «*كان، قبل كل شيء، يُمثّل حضارة تتّسم بالمسؤولية والتضامن على جميع المستويات*» بما فيها البيئة، ويقول : «*كان الإنسان يُعتبر أيضا مسؤولا على توازن العالم الطبيعي المحيط به.*

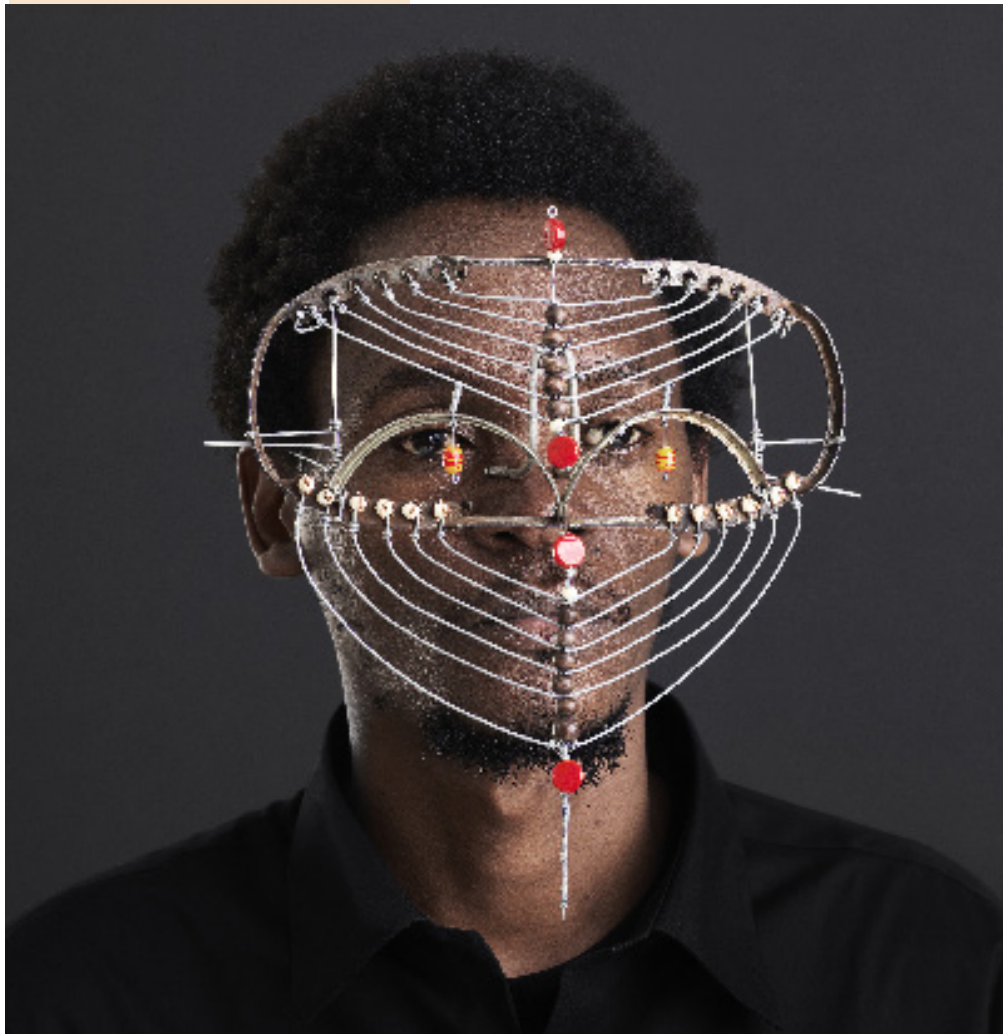

وكان يُحجّر عليه اقتلاع شجرة دون مُبرّر أو قتل حيوان دون سبب وجيه. فالأرض لم تكن تعتبر ملكا له، وإنما وديعة مُقدّسة عُهدت إليه من طرف الخالق، ويقتصر دوره على تسييرها». وفي عصر الأنثروبوسين، العصر الجيولوجي البشري الذي جاء نتيجة للقطيعة بين الإنسان والطبيعة، تدعونا عبرة أسلافنا إلى التساؤل الجدّي حول نمط الحياة الذي اتّبعناه، وهو نمط مُدمّر للتقاليد كما للمحيط.

الإنفتاح، والتنوّع، والحوار والتفاهم، تلك هي الركائز الأربع التي ترفع عاليا وبقوّة المعاني التي تتضمّنها هذه الرسالة الثمينة لأمادو همباطي با والتي حان وقت وضعها بين أيدي الشباب والكهول في أفريقيا وخارجها.

أمادو همباطي با ــ الراوي، والكاتب، والشاعر، والعالم في الأنثروبولوجيا، والقائد الروحاني، والعالم في تأويل الأرقام، والدبلوماسي ــ يُعرّف بنفسه «*كخرّيج جامعة الكلام الذي يُدرّس في ظل شجرة الباوباب*». وبعد أن عبر مسالك غير مألوفة للصعود إلى المجالات الرفيعة للمعرفة، تعهّد بنقل المشعل إلينا، مهما كانت معتقداتنا، ولون بشرتنا وعمرنا.

مالي يا مفالمي، ماشو نني / نوبيا كالي (*النوبة العتيقة*)، 2016، عمل فني للفنان التشكيلي العصامي سيروس كابيرو، كينيا

© Courtesy of the artist and SMAC Gallery

وُلد **عبد الرحمان أ. وابري** سنة 1965 في جمهورية جيبوتي الحالية. يعيش بين فرنسا والولايات المتحدة حيث يدرس كأستاذ في جامعة جورج واشنطن. ألّف العديد من الروايات، منها *في الولايات المتحدة الأفريقية* (2006)، و*الأغنية الإلاهية* (2015). كما ينشر مقالات مرتين في الشهر في صحيفة *لوموند* الفرنسية. وتُعتبر أعماله التي تُرجمت إلى أكثر من 12 لغة، مساءلة للعالم تتسم بالغضب والرقّة والرأفة.

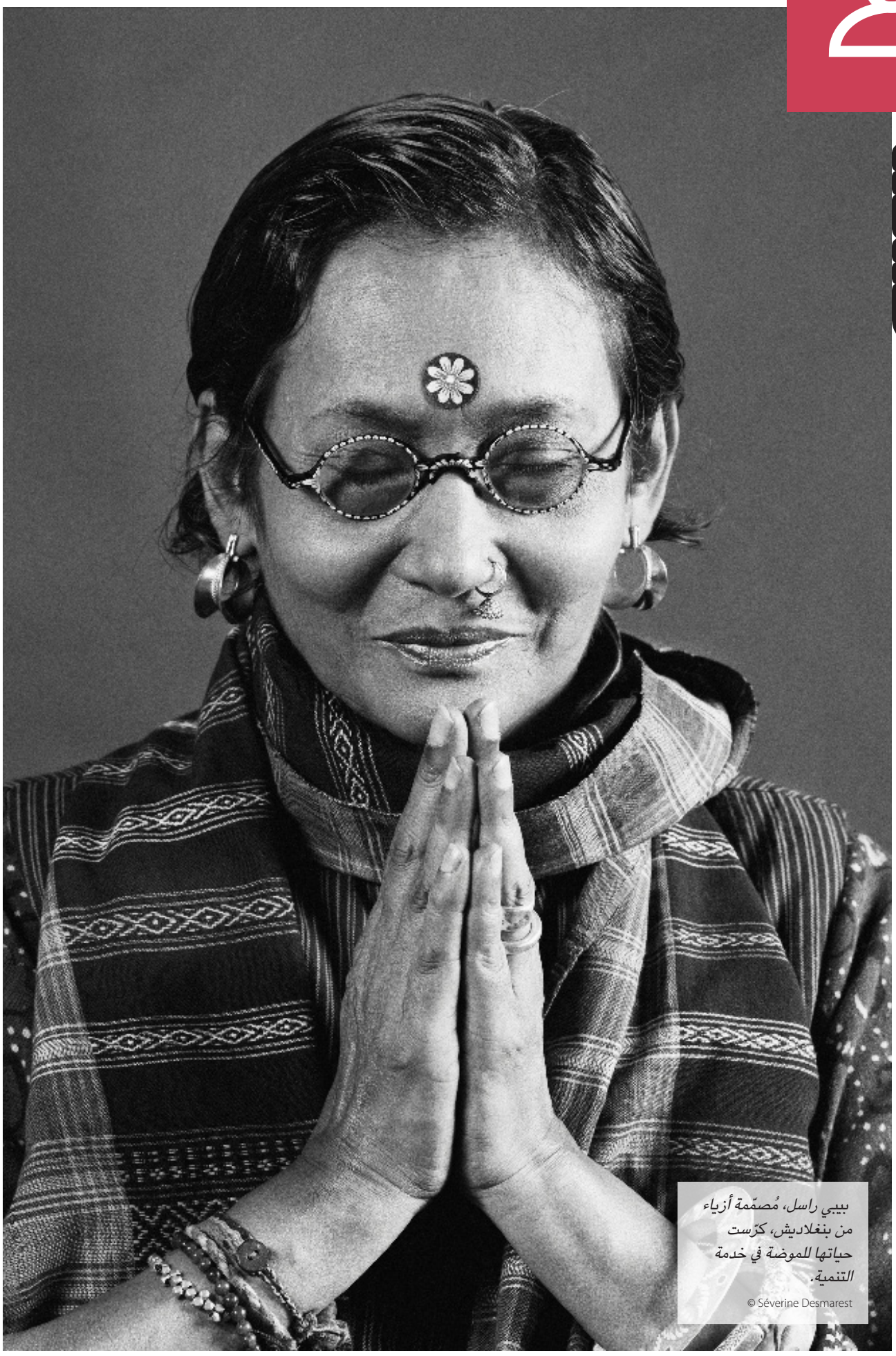

بيبي راسل، مُصمّمة أزياء من بنغلاديش، كرّست حياتها للموضة في خدمة التنمية.

© Séverine Desmarest

بيبي راسل:

الأنامل السّحرية

أجرت المقابلة كريستا بيكات (اليونسكو) وياسمينا شوبوفا

نجحت بيبي راسل، فنانة اليونسكو من أجل السلام والمصمّمة الشهيرة عالميا، في تحقيق عمل مبهر: لقد جعلت من الـ «*غاموشا*» –تلك المناديل القطنية التقليدية التي يستعملها سكان جنوب آسيا لمسح أيديهم ووجوههم – تنافس أرقى القطع في عروض الأزياء في جميع أنحاء العالم. إلا أنها حققت نجاحها الأهم بعيدا عن المنصات الفاخرة، في مئات مشاغل النسيج في بلدها بنغلاديش، وأيضاً في أوزبكستان وكولومبيا والهند...

في ديسمبر 2017، شاركت بيبي راسل في أسبوع تراث راجاستان بالهند وتم خلاله تسليط الأضواء على مجموعة بياضات «*خاديس*» من تصميمها. كان العرض بمثابة تقدير منها للمهاتما غاندي وللنّساجين التقليديين في راجاستان الذين حاكوا تلك الأقمشة.

كما شاركت في معرض الكومنولث للأزياء في فبراير 2018، الذي خصص لإنتاج دول الكومنولث في مجال الموضة، وقد انتظم في قصر باكنغهام بلندن برعاية الملكة ودوقة كامبريدج.

وتعتني بيبي راسل حاليا بمشروع تعتبره «*صعباً ومُلزما عاطفيا*». بدعم مباشر من *ماماتا بانرجي*، رئيسة وزراء مقاطعة البنغال الغربية، تشتغل بيبي منذ شهر سبتمبر 2017 في مؤسّسة «*ليلوا هوم*» التي تعد أكبر ملجأ للفتيات في تلك الولاية، بعضهن من ضحايا الاتّجار بالأطفال. وتقوم بيبي بتكوين الفتيات ومساعدتهن على تنمية مهارات تسمح لهن بكسب معيشتهن.

تقول بيبي: «*لا أستطيع أن أصدّق أنّ في القرن الحادي والعشرين - في حين يتحدث الجميع عن استقلالية المرأة والمساواة في الحقوق - لا زالت بناتنا تُباع!*»، مُشيرة إلى أنّ الفتيات الفقيرات في المقاطعة يتّم بَيعهن بأقل من 100 دولار. «*إن توفرت لي القوّة لإنهاء هذا العمل الصعب، آمل أن تُفتح الأبواب أمام هؤلاء الفتيات لبدء حياة جديدة مفعمة بالكرامة والمحبة*».

وها أن جهودها جادت بثمارها. في 7 مارس 2018، صعدت على المنصة ثلاثة وثلاثون فتاة من الملجأ، من بينهن سبعة طفلات لاجئات من الروهنجيا، في عرض للأزياء نظمته الحكومة في كلكاتا، وصممته بيبي راسل. وارتدت الفتيات أزياء من تصميم رفيقاتهن في الملجأ اللاتي انتفَعن من تكوين بيبي.

مُنذ أواخر التسعينات، تشتغل بيبي على تطوير النسيج التقليدي والحرف اليدوّية، مُتيحة بذلك الفرصة للآلاف من الأشخاص للخروج من دائرة الفقر بفضل «أناملهم السحريّة».

الموضة هي غرامك وموهبتك الأصلية، لكنك اشتهرت أولا كعارضة أزياء. كيف وصلت فتاة أصيلة بنغلاديش إلى مدرسة لتصميم الأزياء في لندن؟

في بيتنا، كانت والدتي هي التي تُخيط كل ملابسنا. لم تشتكي شقيقاتي أبداً من ذلك، أمّا أنا فلم أكن راضية تماماً. وحين بلغت سنّ العاشرة، اشترى لي والدي آلة خياطة. في مثل ذلك السن، يصعب استعمال المقص بدقة، لكني انهمكت في الشغل دون ارتياب.

ولما بلغت الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمري، أهداني والدي كتاباً عن دار الأزياء شانيل. ومن هنا، اكتشفت تصميم الأزياء الراقية في فرنسا وأدركت أنّ للموضة قواعدها. فأردت تعلّمها.

© Bibi Productions

مشهد من ورشة تُنشّطها بيبي راسل في أوزبكستان

بين سن السادسة والثانية عشر، كُنت قد حصلت على عدة جوائز فنيّة، لكنّي لم أكن مولعة بفن الرسم. كانت تراودني فكرة أخرى وهي الذهاب إلى لندن والاستقرار فيها. وبعد أن رفضت كلّية لندن للأزياء ترشحي طوال ستة أشهر، وافقت في النهاية على تسجيلي بشروط عدّة.

تنشر رسالة اليونسكو هذه المقابلة مساهمة منها في الاحتفال باليوم العالمي للتنوّع الثقافي من أجل الحوار والتنميّة، في 21 مايو.

بعد أن قضيت نحو عشرين عاما في الغرب، حيث مارست مهنة عارضة أزياء بتألق، عدت إلى بنغلاديش سنة 1994. ما الذي دعاك للعودة؟

كان لديّ حُلم منذ الصغر. لم أكن أفهم لماذا يُعتبر الشعب البنغالي فقيراً، في حين أنني أرى البلد زاخرا بالألوان والموسيقى! ورافقني هذا الحُلم إلى أوروبا. وذات يوم، شعرت بأنني مستعّدة ذهنياً وجسدياً للعودة إلى دياري.

كُنت مقتنعة بأنّ سكان بنغلاديش يحتاجونني بقدر ما أحتاجهم: لا تصفق يد بمفردها. واليوم، وقد اكتسبت أكثر من عشرين عاما من الخبرة، أعلم أن اختياري كان صائبا. هم يعرفون أنني أكنّ لهم كل الاحترام وأساعِدهم على استعادة كرامتهم الإنسانيّة. هذا هو أهم ما في الأمر. ومن ناحيتهم، يغمرونني بالكثير من الحب والمودّة، مما يزيد من عزمي على المُضي قدماً. لا شيء في الدنيا قادر على إبعادي من هذا العمل.

كنت دائما مخلصة لبلدي. بقي والداي في بنغلاديش، وكنت أعود بانتظام لزيارتهما لما كُنت أعيش في الخارج. ولدت في بنغلاديش وأمضيت فيها طفولتي. ولفترة الطفولة تأثير كبير على حياتنا.

لديّ عائلة رائعة. وقد علّمني والداي أن أقدّر ثقافتنا وكذلك ثقافات الغير. كانت بنغلاديش جُزءًا من الهند التي كانت تحكمها الإمبراطورية البريطانية وامبراطورية المغول.

وبفضل التربية التي وفرها لي والداي، تعلّمت الكثير عن الهند الكبرى وعن ثقافات البلدان الأخرى. أعتقد أنّه يجب على الآباء أن يبذلوا أكثر جهد لنقل ثقافتهم وتقاليدهم لأطفالهم، حتى لا تندثر.

عندما عدت إلى بنغلاديش، فتحت مشغل خياطة صغير، توسّع في ما بعد ليصبح سنة 1995 شركة بيبي للإنتاج. مُعظم النسّاجين يشتغلون في القرى. لماذا قرّرت تأسيس شركتك في العاصمة دكّا؟

ليس لديّ سوى مكتب واحد في دكّا. أحتاجه حتى أبقى على اتصال بالعالم. لكنّني أمضي نحو 99،9% من وقتي في القُرى. فنحن نعمل مع حرفيين في أنحاء مختلفة من بنغلاديش. هم ليسوا من الفئة المتميزة، لكن كل واحد منهم – بدءًا من الشخص الذي يعدّ الشاي في مكتبي – يشعر أن بيبي للإنتاج هي بمثابة بيته.

لقد أنشأت شركة بيبي للإنتاج لأجل شعب بنغلاديش، وأعتبر أنها تنتمي لهذا البلد.

كيف تحددين فلسفة بيبي للإنتاج؟

إن شركة بيبي للإنتاج ليست مؤسسة غير ربحيّة، لكنّ الأرباح التي تحقّقها ضئيلة جداً. هدفنا هو إنقاذ الصناعات التقليدية وإحيائها، ودعم الحرفيين وتحسيسهم بأهميّة التعليم والصّحة.

إن التقدم الذي تحقق منذ إنشاء بيبي للإنتاج سنة 1994 واضح للعيان. كُلّ الذين يعملون في الشركة، نساء ورجالا، سواء كانوا في المقر الرئيسي أو في القرى، ليس لديهم أكثر من طفلين أو ثلاثة أطفال. هم تعلموا التصرف في مداخيلهم المالية بطريقة أفضل، فتحسّن مُستوى معيشتهم.

والآن وقد نجوا من الفقر، أدركوا أهميّة إرسال أطفالهم إلى المدرسة. إن التعليم والصّحة هما العمود الفقري لأيّ اقتصاد في أيّ بلد.

كم تشغّل مؤسّسة بيبي للإنتاج من شخص؟

نشغّل حوالي ثلاثين شخصاً في المقر الرئيسي، آتين من أنحاء مُختلفة من بنغلاديش. البعض منهم كان يعتقد في بادئ الأمر أنّه يفتقد للمهارات والمعرفة الضرورية للعمل. لكنني قادرة على التعرّف على الأذهان المنفتحة.

إضافة إلى ذلك، نتعامل مع آلاف الحرفيين. لا أستطيع تحديد عددهم بالضبط، لكنه يبلغ نحو 100.000 شخص. هل يبدو لك هذا العدد كبيرا؟ إنّه لا يمثل حتّى 1% من النسّاجين في البلاد! أتمنى أن أقول يوما في قرارة نفسي إنني تسلقت أولى درجات السلم قبل أن توافيني المنية. بقي الكثير مّما ينبغي إنجازه.

في بلدان مثل الهند وبنغلاديش وفي منطقة آسيا الوسطى، تُمثل الزراعة أهّم قطاع في الاقتصاد. ويعيش كل من المزارعين والحرفيّين جنبا إلى جنب. أنا أتعامل مع أناس يصنعون الأشياء بأيديهم. الهدف الذي أسعى إليه هو استخدام الموضة في سبيل التنميّة.

كيف بدأت فكرة «أزياء في سبيل التنمية»؟

كان ذلك في سنة 1996 عندما أقمت أوّل معرض لي في مقرّ منظمة اليونسكو. نادراً ما توفر وكالات الأمم المتحدة الدعم لمصمّمي الأزياء، إلاّ أنّ اليونسكو أقرّت بالصلة بين الموضة والتنميّة والتعليم والصّحة. وأحرز المعرض الذي احتضنته اليونسكو بتغطية إعلامية واسعة إذ بثته تسعة وعشرون قناة تلفزيونية من جميع أنحاء العالم. وحظي بدعم من فيديريكو مايور، مدير عام اليونسكو آنذاك، وملكة إسبانيا. وإذا كانت وسائل الإعلام قد صنعت مني عارضة أزياء شهيرة، فإن هذين الشخصين اللذين وثقا بي منذ البداية، منحاني دعماً لا يقدّر بثمن في حياتي المهنيّة كمصمّمة.

كما تلقيت الكثير من الدعم على الصعيد الدولي. ومنذ ذلك الحين، دُعيت إلى جامعات عالمية مرموقة أصبحَت تهتم بموضوع الموضة في سبيل التنميّة، وكذلك إلى المنتدى الاقتصادي العالمي الذي أدرك أهميّة الاقتصاد الإبداعي والاقتصاد الاجتماعي.

بيبي راسل مع حرفيّات من راجستان، في الهند

© Bibi Productions

© Bibi Productions

بيبي راسل تُقدّم للجمهور الحرفيّات اللاتي قمن بخياطة ملابس استعراض الموضة الذي انتظم في مارس 2017، بمناسبة الاحتفال بيوم راجستان، بالهند

في عام 1999، عينتك اليونسكو «مصمّمة في سبيل التنميّة». ثم في 2001، «فنّانة من أجل السلام». ماذا يعني اعتراف اليونسكو في نظرك؟

ما أنا عليه اليوم هو بفضل اليونسكو. وبفضل ما أنجزتُه، أدرك الناس أنّ بنغلاديش ليس فقط مغمور بالمشاكل، بل هو أيضاً بلد رائع.

بعد أن تمّ تعييني «مُصمّمة في سبيل التنميّة»، عُدّت إلى بلادي وأظهرت الشهادة للنسّاجين. قُلت لهم إنّ الشهادة ليست لي فقط، بل هي لهم أيضاً. إذا أردت تغيير طريقة تفكير الناس، لا بد أن تحترمهم أوّلا.

إن أيّ اعتراف يمنحك القوّة. لقد تم تعييني أُستاذة شرفية في جامعة الفنون بلندن اعترافا بمُساهمتي في تطوير النسيج. كما حصلت على جائزة مرموقة من الأكاديمية البنغالية، وهي مؤسّسة وطنية بنغلادية أُنشئت في عام 1954 بهدف صيانة لغتنا على غرار نموذج الأكاديمية الفرنسية. وقد أشاد أيضاً أكبر المصمّمين في العالم بجهودي لصالح التنميّة. هذا الاعتراف الدولي يُساعدني كثيرا في سعيي لجعل الموضة في خدمة التنميّة.

ما هي خصوصياتك كمصمّمة أزياء؟

كلّ ما تنتجه بيبي للإنتاج هو طبيعي ومصنوع يدوياً. أنا لم أستعمل أبداً الأقمشة الاصطناعية ولا الألوان الكيميائية. لا أعني أنه يجب أن يرتدي الناس ملابس من مواد طبيعية ومصنوعة يدوياً طوال الوقت، ولكن إذا كان لديهم أربعة أو خمسة منها، ليرتدوها بقدر الإمكان!

إن التصاميم التي ابتكرها مستوحاة من الرسوم التقليدية. وبالطبع، أقوم بتغيير الألوان وتبسيط التفصيل، لكنّي أبقِي على التقنيات التقليدية في نسج القطن أو الحرير.

تعد الأغراض الإضافية والأوشحة من بين المبيعات الأكثر رواجا. أساوري مصنوعة من صفير الماء، وهي نبتة منتشرة على نطاق واسع في بنغلاديش. وتقوم بإنجازها نساء تعيش في ست قرى. وقام الممثل الإسباني الشهير أنطونيو بانديراس بالترويج لمناديل «*غاموشا*» (مناديل قطنية يستعملها الفقراء). لذلك أنا لستُ بحاجة إلى إنفاق المال على الدعاية. ولن أفعل ذلك أبدا لأن بيبي للإنتاج مشروع ممّول ذاتياً، ومئات من الناس يعتمدون على عملي لكسب لقمة العيش.

كيف تطوّر نشاطك؟

عندما بدأت العمل في كمبوديا، انطلقت في إعادة تدوير المواد المستهلكة، واليوم أصبحت خبيرة في هذا المجال! في بنغلاديش، أنتج من كل ما يلقي به الناس.

كما استوحيت من فن الرسم البنغالي «ريكشو» لصُنع إطارات النظارات مثل التي أرتديها شخصياً.

لكن «*الثورة*» الحقيقيّة جاءت مع الأزياء الخاصة بالشباب. نصنع سراويل الجينز بألوان مُختلفة، والساري من طراز جديد، وأقمصة عصرية...

كيف توفقين بين حياتك العائليّة وأنشطتك المهنيّة؟

أعرف الحياة الزوجية، ولديّ طفلان. لمّا كانا في سن 9 أو 10 سنوات، شرحت لهما أن لدي حُلم لا بد أن أحققه حتى لا يصيبني الإحباط. اليوم وقد تُوفيّ والداي واستقر أطفالي في الخارج، لا أشعر أبدا بالعزلة، بفضل الحرفيين الذين يحيطون بي. هم ناس بسطاء يحتاجون إلى أُجورهم في اليوم الأوّل من الشهر لتسديد مبلغ الإيجار. هم لا يمثلون عائلتي، لكنّهم أهم شيء بالنسبة لي.

ومُنذ عودتي إلى بنغلاديش، جمّعت أطفال الشوارع وقدمت لهم الدعم المالي شريطة أن يذهبوا إلى المدرسة. أصبحت ضامنة لهم لدى مدارس المنظمات غير الحكومية، حيث لا يُقبل عادة أطفال الشوارع. وقد فاق عددهم إلى حد الآن مائة طفل! إنهم مصدر فرحي كلما جئت إلى دكّا.

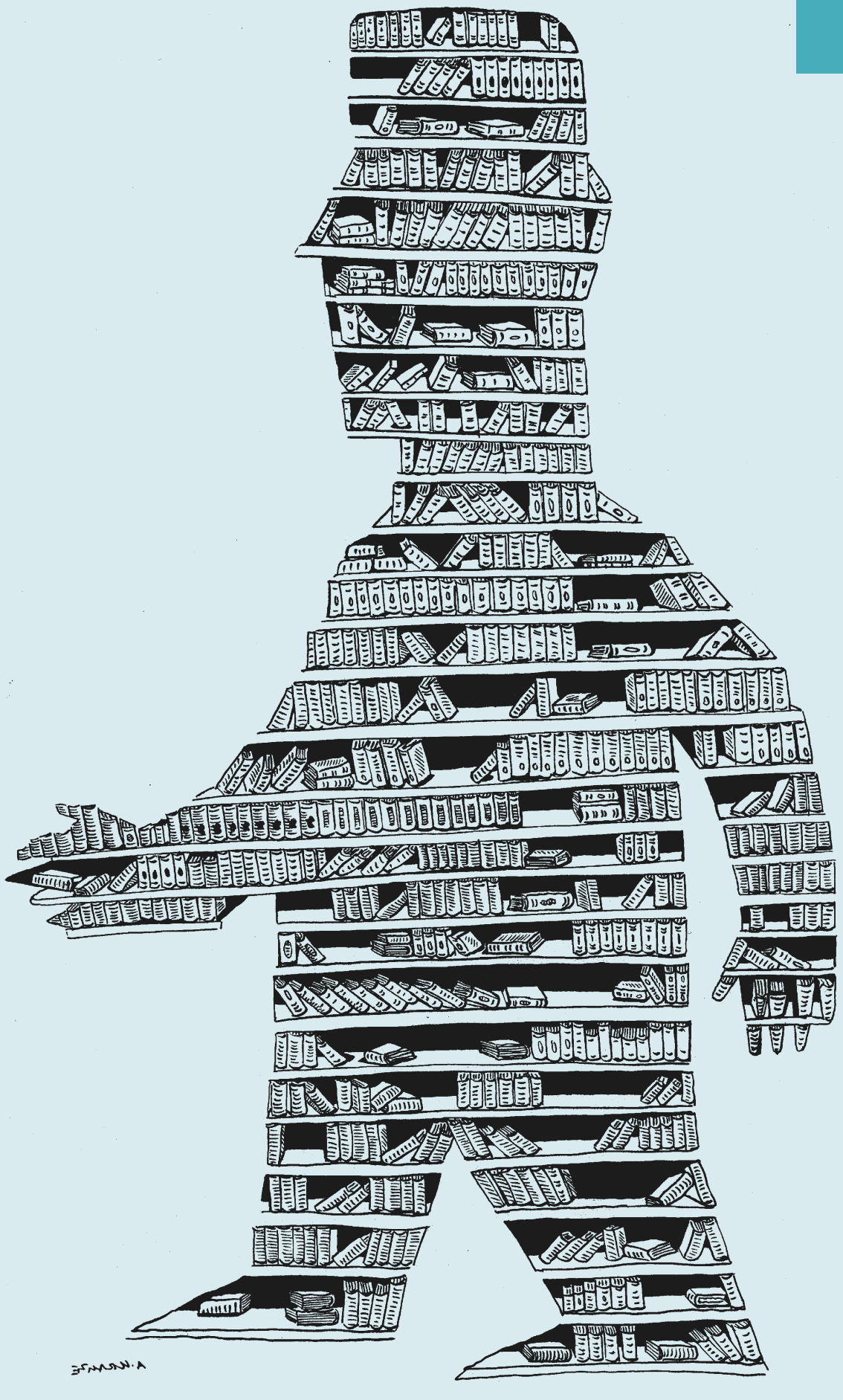

© Andrzej Krauze (andrzejkrauze.com)

أثينا: كتب في كل مكان

بقلم آنا روتسي

في 23 أبريل، تنطلق العاصمة اليونانية في الاحتفال بالمطالعة والثقافة والمعرفة بمناسبة اختيارها عاصمة عالمية للكتاب لسنة 2018 من طرف اليونسكو. «*الكتب في كل مكان*» هو شعار هذه التظاهرة، التي تشمل العديد من الأنشطة المفتوحة للجميع، في كل أنحاء المدينة التاريخية وضواحيها، طوال سنة 2018.

© Jean-Claude Beaujouan

الملجأ، نصب للفنانين الفرنسيين دومينيك جالو وكريستوف لالان ولورين بوجوان في معرض نشوة الكتب، في أمبواز، فرنسا، 2015

عُشاق الكتاب من سكان أثينا وزائريها سوف يستمتعون قريبا. ذلك أن المدينة العريقة التي تم اختيارها *عاصمة عالمية للكتاب لعام 2018*، ستحتفل بالكتب بألف طريقة وطريقة، خلال الفترة الممتدة من أبريل 2018 إلى أبريل 2019.

استعدادا لهذا الحدث، بذلت مدينة أثينا كل الجهد لترجمة رؤية رئيس بلدية أثينا، جورجيوس كامينيس، إلى واقع ملموس. الهدف الذي يسعى إليه هو وفريقه – المكوّن من سبعة أعضاء عينوا خصيصا بهذه المناسبة – هو مشاركة المواطنين من مختلف الفئات الاجتماعية والإثنيّة والعُمرية، في ترويج القراءة والتعلّم في جميع أحياء أثينا من خلال العديد من الأنشطة المحلّية الصغرى، لتعزيز شعورهم باحترام الذات والتكامل والترابط الاجتماعي. كما سيتّم جمع القوى الإبداعية في المدينة حول مشروع ثقافي مشترك لتكوين ثروة مادية ومعنوية لفائدة المواطنين قصد ترسيخ حب المطالعة وممارستها.

للوصول لهذه الغاية، تعاونت المدينة مع أكثر من 150 مؤسسّة تعليميّة، ومع مُؤلفين ودور نشر.

واستجابت للنّداء المراكز الثقافية، والمتاحف، ومنظمات المجتمع المدني، والمؤسسات المبتكرة، والمنظمات غير الحكومية، والسفارات والمنظمات الدولية. وليس غريبا أن تلتحق بها نحو 150 مكتبة في جميع أنحاء اليونان، تحت رعاية المكتبة الوطنية اليونانية، لتنظيم العديد من البرامج الخاصّة في إطار حملة المطالعة الصيفيّة.

كما انخرطت في المشروع البرامج والهيئات البلدية ومن بينها *شبكة أثينا للثقافة* ومبادرة *المدارس المفتوحة* – وكلاهما مموّل من طرف مؤسسّة ستافروس نياركوس – والمجمّع الثقافي *تكنوبوليس* ومتحف الصناعة، ومنظمة *أوباندا* للشباب والثقافة والرياضة، ومنصّة المجتمع المدني *سين أثينا*، والبرامج التي تعنى باللاجئين.

من المرتقب حضور مليون زائر

يتألف البرنامج من مزيج حيوي لأكثر من 250 تظاهرة ونشاط، تتمحور كلها حول عالم الكتب والتعلّم وتقاسم المعرفة. ومن المنتظر وفود نحو مليون زائر، لذلك ترغب المدينة في توفير مشهد أدبي يتوافق مع جميع الأذواق والأعمار.

وبالإضافة إلى زرع حب المطالعة والتعلّم، تأمل المدينة في تيسير الحوار المفتوح – ليس فقط بين المبدعين والجهات المعنية والنُخبة الفكريّة – ولكن وبالخصوص، داخل المجتمع بأسره.

وقد تم الربط بين الكتب والمطالعة وبين الفن والإبداع، والتركيز على التعلّم، وكذلك على الجوانب الترفيهية والممتعة للمطالعة.

ونظرا للصعوبات المالية التي تمرّ بها البلاد والأزمة التي تُواجهها صناعة الكتب، لم يكن من السهل توفير التمويلات اللازمة، وأتى هذا الجانب بقسطه من التحدّيات. ومع ذلك، خصّصت مدينة أثينا ميزانية قدرها 500.000 يورو للإعلام والمساهمة في أنشطة منظمة *أوباندا*. وفي نهاية فبراير 2018، بلغت التبرعات من المؤسّسات والجهات الراعية والسفارات التي دعمت الأنشطة بشكل مباشر نفس القدر أي 500.000 يورو، ومن المتوقع أن يرتفع هذا المبلغ. والشيء الذي فاجأنا وشجّعنا هو اهتمام مُعظم المشاركين ورغبتهم في الوقوف إلى جانبنا ووضع إمكانياتهم في سبيل إنجاح هذا الحدث الذي يكتسي أهمية بالغة بالنسبة لمدينتنا.

آنا روتسي (اليونان) هي مستشارة لدى رئيس بلديّة أثينا مكلفة بالتنظيم والترويج لبرنامج «*أثينا عاصمة عالمية للكتاب 2018*».

ملء الفراغ الثقافي

بقلم لوسي موشيتا

إن الشباب في جنوب القارة الأفريقية موهوب تماما مثل غيره في أي مكان آخر من العالم. لكن اندثار التقاليد المحلية وافتقادهم للأماكن التي من شأنها أن توفر لهم الظروف الملائمة لتنمية طاقاتهم الإبداعية، يجعلهم مكبوتين في فراغ ثقافي لا يغنيه استهلاك ما يرد على شبكة الإنترنت: هم يحتاجون للأدوات والوسائل المناسبة، والإرشاد والتشجيع حتى يتمكنوا من صياغة مساراتهم الخاصة.

تزخر القارة الأفريقية بالمواهب، من موسيقيين وكتاب وشعراء وفلاسفة وراقصين وغيرهم... يشكل هؤلاء الفنانون وإبداعاتهم القنوات التي تمرّر الثقافات من جيل إلى آخر. لكن الكثير منهم عاش في المنفى أو لا يزال، مثل الكاتب الكيني نغوجي واثيونغو، والكاتب المسرحي النيجيري وول سوينكا، والروائي والكيميائي الكونغولي ايمانويل دونغالا، والكاتب الفرنسي-الكونغولي آلان مابانكو والموسيقي الزيمبابوي توماس مابومو... والقائمة طويلة. كما يشغل البعض من هؤلاء الأفارقة المنفيين مناصب في جامعات مرموقة في الخارج حيث يلاقون كل التقدير الذي يستحقونه، بينما يحرم الطلاب في بلدانهم الأصلية من معارفهم .

وفي الأثناء، يندثر شيئا فشيئا الأدب الشفهي التقليدي ليغيب عن المشهد الثقافي. حين كنت شابة - نشأت في قرية صغيرة في روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حاليا) خلال فترة التفرقة العنصرية - تغذت هويتي واحتياجاتي الثقافية بالآثار الأدبية المنقولة عن الأجداد الذين كانوا يروون لنا القصص عند حلول الليل. كانت تلك الروايات مزيجا من المسرح والغناء والرقص، وتعد بمثابة الدروس التكميلية لتعليمنا الرسمي.

© Kudzanai Chiurai/Courtesy of the artist and Goodman Gallery

نعيش في الصمت 8، عمل من إبداع الفنان التشكيلي الزمبابوي كودزاناي شيوراي، 2017

في المدرسة، قرأت مؤلفات كلاسيكية للعديد من رموز الأدب الإنجليزي والفرنسي والأمريكي. لكنها كانت بعيدة كل البعد عن واقعنا اليومي وخالية من أية أفكار قد توحي لنا بالاعتقاد بأننا متساوون مع السكان البيض. ولكن، على الرغم من الرقابة المسلطة على الكتب، اكتشفت من خلال القراءة عالما جديدا لم أكن أتوقعه، وثقافات أخرى وتعرفت على التفكير الفلسفي والمنطق، مما أدى بي إلى إعادة النظر في الوضع الراهن.

اليوم، لا يعرف الشباب الأفارقة سوى القليل النادر عن تراثهم التقليدي، ويفضلون قضاء وقتهم في استكشاف أفلام هوليوود، أو اللعب على شبكة الإنترنت. وبدلا من نقل ثقافتهم الأصلية إلى أطفالهم وأحفادهم وحثّهم على خلق أعمال فنية نوعية منبثقة عنها، يخيرون دفع المال لاستهلاك المنتجات الترفيهية الأجنبية. والنتيجة هي أن شبابنا أضحى منفصلا عن تراثنا وعن أعمال المؤلفين والمفكرين المعاصرين الأفارقة.

هل هناك حقا نقص في تمويل المشاريع؟

ما هي السياسات التي يمكن أن تتبناها دول الجنوب الأفريقي حتى تملأ هذا الفراغ الثقافي بمحتوى ملائم؟ ما الوسيلة لحث الشباب الأفارقة على التفكير بدلا عن اجترار أي شيء يمر عرضا على طريقهم؟ كيف يمكن لهذه المنطقة أن ترفض الإنتاج المتسمم وأن توفر للشباب ما يغذي قدراته الإبداعية الأصيلة؟

قد تكون حجة نقص الموارد مقبولة في كثير من الحالات. ولكن، ما ألاحظه هو أن كل البلدان تقريبا في جنوب أفريقيا ينفقون الملايين على ملاعب كرة القدم ويسددون مرتبات مذهلة للاعبين. صحيح أنه يجب تعزيز الرياضة وأن ملاعب كرة القدم مربحة عموما. لنبتكر إذن استراتيجية توفق بين الرياضة والثقافة، تسمح مثلا باستغلال العائدات المالية للملاعب الرياضية في تمويل المكتبات وقاعات السينما والمسارح ومراكز ممارسة الموسيقى.

وهناك ذريعة أخرى ذات الصبغة السياسية، وقد عهدناها، تقضي بأن أي استثمار ينبغي أن يخلق مواطن شغل. ولكن، ماذا عن هوليوود مثلا، التي توظف الآلاف، إن لم يكن الملايين من الأفراد، بشكل مباشر أو غير مباشر، مما يعود بالفائدة على الولايات المتحدة على المستوى الاقتصادي، بالاضافة إلى ما يتيح لها من فرص لاستخدام قوتها الناعمة. والآن وقد أصبحت التكنولوجيا في متناولنا، صرنا قادرين أيضا على صياغة قصصنا الخاصة، من خلال الأدب والسينما والفن.

نجاح أفريقي

إن الإبداع لا يعني بالضرورة تكاليف باهظة. في عام 2016، نشرت دار «*سكستيك أند ساكند*» الإيطالية مجموعة قصصية حول رياضة كرة القدم في القارة الأفريقية، بقلم كتاب أفارقة، تحمل عنوان «سعادة الرجال البسطاء».

وبما أن الكتاب قد صدر باللغة الإيطالية وحدد ثمنه بـ18 يورو للنسخة الواحدة، لم يكن بمقدور الكثير من الأفارقة اقتناؤه. وفي المقابل، كان فيلم «*نيريا*» في متناول المشاهدين، وهو فيلم من إخراج الزيمبابوي غودوين ماورو عام 1993، عن سيناريو للمؤلفة والسينمائية تسيتسي دانغاريمبغا، يروي قصة نضال امرأة. ولا يزال «*نيريا*» الفيلم الذي لاقى النجاح الأكبر والذي جنى أعلى الأرباح في تاريخ السينما الزيمبابوية.

لقد كان – تقريبا – من باب المستحيل لأي شخص من جيلي أن يصبح مؤلفا محترفا، في حين أصبحت اليوم كل الإمكانات والأدوات في متناول الشباب الأفارقة. كاتبات وفلاسفة من النساء – مثل كين بوغول (السنغال)، وكيدي بيباي (فرنسا-الكاميرون)، ونادية يالا كيسوكيدي (ولدت في بلجيكا من أب كونغولي وأم فرنسية-إيطالية)، وفرجينيا فيري (زيمبابوي)، وشيماماندا نغوزي أديشي (نيجيريا) – أمسكن بأقلامهن، ولا بد لأفريقيا أن تستمع إليهن وأن تَدعمهن. إن صورة أفريقيا السائدة عبر العالم لا زالت تشوبها النظرة الاستعمارية. وإذا ما توفرت الفرص المناسبة للأصوات الأفريقية، فسوف تكون قادرة على تغيير هذا الوضع.

غير أن شبابنا موهوب تماما مثل غيره في أي مكان آخر من العالم. وقد التقيت بفتيات وفتيان يؤلفون أجمل المقطوعات الموسيقية بأدوات بسيطة، أو ينتجون أفلاما قصيرة ممتازة باستخدام هواتفهم الذكية، وذلك دون أن يحصلوا على أي تدريب خصوصي. وإن سنحت لهم الفرصة، فسوف يستفيدون كثيرا من الموارد الإلكترونية مثل الكتب القابلة للتنزيل. والأمر كذلك بالنسبة للفنانين التشكيليين الذين يحتاجون لأروقة لعرض ابداعاتهم. كما يجب وضع سياسات للملكية الفكرية لحماية أعمالهم.

> *لنبتكر إذن استراتيجية توفق بين الرياضة والثقافة، تسمح مثلا باستغلال العائدات المالية للملاعب الرياضية في تمويل المكتبات وقاعات السينما والمسارح ومراكز ممارسة الموسيقى.*

لوسي موشيتا (زيمبابوي) كاتبة وروائية. ولدت في روديسيا الجنوبية ونشأت في قرية صغيرة خلال فترة التفرقة العنصرية. روايتها *تشينونغوا* (نشرت في جنوب أفريقيا عام 2008، ثم في فرنسا في عام 2012 عن دار النشر «آكت سود») تلقي الضوء على هذه الفترة من حياتها، قبل أن تغادر بلدها في عام 1986 إلى فرنسا والولايات المتحدة وأستراليا ، إلى أن جعلت من باريس مقر إقامتها.

تنشر رسالة اليونسكو هذا المقال مساهمة منها في الاحتفال بالأسبوع الأفريقي في منظمة اليونسكو.

الشبان الأفارقة:

ابتكار سياسة جديدة

بقلم حميدو آن

العديد من الشبان لا يثقون بالسياسات المعتمدة حاليا في أفريقيا. مناضلون في المجتمع المدني ونشطاء في الشبكات الاجتماعية يُعارضون السلطة القائمة، من خلال فن الراب والرسم على الجدران، أو بإعادة تحيين مصطلحات ثقافية تقليدية. وبما أنهم أنصار صنف من الديمقراطية المباشرة، يُمهدون لحلول مجتمع يتقلص فيه الترتيب الهرمي ويتحرّر نهائيا من الاستعمار.

رغم التقدّم الذي تم تحقيقه في بعض المجالات والذي يستحق التأكيد عليه وتثمينه، لا بد من الاعتراف بأن الطبقة السياسية الأفريقية فشلت في مهمتها في التأسيس لأمم تسودها العدالة والتقدم. وإذا أضفنا لذلك عجز القوى المعارضة على اقتراح حلول بديلة جديرة بكسب شيء من المصداقية، فعلينا أن نسلّم بأن السياسة في انحطاط شامل. وأمام هذا المأزق، ينجرّ الشباب بشكل مكثف إلى خطاب يسوده الحذر، يمكن تلخيصه في هذه العبارة: «*كلهم سواسية*». لقد أصبحوا يُخيّرون وسائل جديدة للتحفيز على الانخراط، مثل بعث شركات ناشئة، أو التحرك في المجال الرقمي، أو النضال صلب المجتمع المدني الجمعياتي. إلّا أن مثل هذه الأنشطة لا يُمكن لها أن تعوّض السياسة. لأن السياسة هي الوحيدة الكفيلة بتغيير مجرى تاريخ بلاد ما، وكسر دائرة إنتاج اللامساواة، وبالتالي إعادة الكرامة للملايين من الناس. توجد في أفريقيا العديد من القضايا العاجلة، لكنه من الضروري، قبل كل شيء، مرافقة بروز خطاب من نمط جديد لدى الشباب، بأساليب أخرى وفاعلين آخرين، يهدف إلى الوصول إلى السلطة بطريقة ديمقراطية.

وها أن بدأ في البروز بكل احتشام، بديل يستحق أن نُعيره أذنا صاغية. لقد ظهرت حركات سياسية جديدة بعثها شبّان منبثقون بالخصوص من ثقافة المدن وضواحيها. يحملون أسماء من قبيل «يانا مار» (لقد سئمنا) في السنغال، و«بالي سيتوايان» (المكنسة المواطنية) في بوركينا فاسو، و«*فيليمبي*» (الصافرة) و«*لوشا*» (الكفاح) في جمهورية الكونغو الديمقراطية. تأتي هذه الحركات بنفس جديد إذا ما قارنّاها بطبقة سياسية مملّة يمكن استبدال أعضائها بعضا ببعض. إن الرسالة التي تبعث بها هذه النخب الجديدة تقطع مع الصيغ السياسية القديمة: فهي صريحة ومباشرة، لغتها واضحة للمُتلقّين، وفي ذلك سبب نجاحها.

وهكذا أدّت الحملات التي نظمتها حركة «*يانا مار*» للحثّ على التسجيل في القائمات الانتخابية، سنة 2011، إلى تعبئة غير مسبوقة. وكان الشأن كذلك بالنسبة إلى العملية الرمزية لتنظيف الشوارع التي انتظمت في واغادوغو غداة الانتفاضة الشعبية في أكتوبر 2014 ضد محاولة تعديل الدستور التي كانت ستفضي إلى تمكين بليز كامباوري من الترشح من جديد إلى رئاسة الدولة، وهو الذي حكم البلاد منذ 1987.

© Sophie Garcia/Hans Lucas

مشروع سياسي يقطع مع الاستعمار

إن هذه الرموز الأفريقية الجديدة تُربك، لا فحسب بخطابها وطرق عملها، وإنما أيضا بهيئتها التي تقطع مع الزي المعهود لدى الطبقة السياسية الذي يختصر في البدلة-ربطة العنق. ويُمثّل مشروع الجيل الجديد في بعده المناهض للثقافة الاستعمارية، تحدّيا مُوجّها إلى الطبقة السياسية، وحتّى إلى المجتمع المدني، بحكم موضعه العرضي، بما أنه يجمع بين عمل سياسي حقيقي وتموقع مواطني. وتكتسي هذه الحركات الشبابية صبغة سياسية في الصميم، رغم أنها تلجأ، تكتيكيا أو عن غير وعي، إلى الظهور في صورة المواطنية، ولا ترغب في المشاركة في المسابقات الانتخابية بشكل مباشر.

«يانا مار»، «بالي سيتوايان»، «فيليمبي»، «لوشا»... كل هذه الحركات تحاول تحقيق عملية تحرير السياسة من الثقافة الاستعمارية. وهو مطمح تضعه على الساحة العامة، بين أيدي المواطنين الذين كانوا، إلى حد الآن، مُستبعدين من اللعبة الديمقراطية ومدعوّين فقط لتقديم الدعم عند التصويت.

وتتبنّى بالخصوص في طريقة تنظيمها، شكلا من الديمقراطية المباشرة. وبفضل علاقاتها المحلّية، تُشرّك حركة *«بالي سيتوايان»* المواطنين المشتتين في كامل التراب الوطني في اتخاذ قراراتها. أما حركة «يانا مار»، ورغم أن علاقاتها الأفقية محدودة أكثر من سابقتها بسبب شهرة زعمائها وشعبيتهم الواسعة، فإن طريقة تنظيمها تُمكّن أيضا الجميع من المشاركة في عملية التشاور. هذا الشكل من العلاقات الأفقية مفقود في الأجهزة السياسية التقليدية. وما نلاحظه فيها من مزيج بين طرق العمل المُتّبعة في الجمعيات المعاصرة واستراتيجيات التشاور المُنحدرة من التقاليد الأفريقية، يُعطينا فكرة عمّا يُمكن أن يكون عليه سير هيكل تنظيمي سياسي في أفريقيا.

إن نجاعة هذه الحركات مؤكدة: ففي السنغال، بمناسبة التعبئة التي انتظمت في 23 يونيو 2011، تمكنت «يانا مار» من خلق حراك مكثف رغم القمع البوليسي ويقظة مصالح الاستخبارات. وقد ساهم هذا الحراك في إفشال عملية تعديل الدستور من قبل البرلمان، وهو تعديل كان يرمي إلى إعادة انتخاب عبد اللاي واد وضمان تمرير السلطة إلى ابنه بعد مغادرته الرئاسة.

الفن في خدمة السياسة

بواسطة الموسيقى والرقص والرسم على الجدران وكل الإحالات التي تستند إلى الطابع الشاعري للجماهير، نجحت هذه الحركات في تجميع الشبان الملمّين باللغة والرموز النابعة من أحيائهم، والذين يدعون، في الشارع كما الإنترنت، إلى خطاب وإلى مشروع بديلين، كفيلين بتمكينهم من الحلم. إن فن الراب، تلك الوسيلة الجذّابة والحاملة لرسالة الاحتجاج، واللجوء إلى اللغات الوطنية (الولوف بالنسبة إلى «يانا مار»، والموري بالنسبة إلى «بالي سيتوايان»)، أو لباس قُبّعة أميلكار كابرال (نسبة إلى رمز النضال ضد الاستعمار البرتغالي في غينيا بيساو)، كلها تُمثّل مرجعيات ثقافية تعتمد عليها الوجوه الرمزية الجديدة البارزة على الساحة السياسية الأفريقية، للقيام بأنشطتها.

إن مسؤوليتها جسيمة، لأنها حاملة للأمل. فهي تُمثّل قوى سياسية بدون عُقد، حرّة، نزعت عنها آثار الاستعمار الثقيلة، قوى سمحت للقارّة من التخلص من مخيال الشفقة الناتج عن البؤس والمجاعة والإيدز والحروب. نحن نعيش اليوم فجر مشروع تحرّري جذري. وعلى غرار حركة الغاضبين التي انبثق عنها الحزب السياسي «بوديموس» في إسبانيا سنة 2014، فإن هذه القوى سوف تضطرّ عاجلا أم آجلا إلى الخضوع للاقتراع المباشر. وحينها سوف يُصبح المنعطف نحو التخلص من الفكر الاستعماري إزاء الدول الغربية ممكنا، ويُصبح إحداث مجتمع يرتكز على واقعنا الاجتماعي والثقافي قابلا للتحقيق.

AR : جمهور يهتف لقافلة المكنسة المواطنية، أثناء المظاهرة ضد مشروع تعديل الدستور في واغادوغو، بوركينا فاسو، في أكتوبر 2014

حميدو آن (السنغال) طالب دكتوراه في العلوم السياسية بجامعة غاستون برجي في سان لوي بالسنغال، كما درس في المدرسة الوطنية للإدارة (فرنسا).

تنشر رسالة اليونسكو هذا المقال مساهمة منها في الإحتفال بالأسبوع الأفريقي في منظمة اليونسكو.

لنصغ
إلى نداء البحيرة

© Tsá Tué Biosphere Reserve

بقلم شان سياورونغ

قرر سكان بحيرة الدب الكبرى الواقعة في وسط الأقاليم الشمالية الغربية في كندا، الأخذ بزمام مصيرهم. بعد الجهود التي بذلوها على مدى عقود من الزمن، تحصّلوا على حقهم في الحكم الذاتي في عام 2016. وفي نفس السنة، تمكنوا أيضا من إدراج إقليمهم تسا توي، ضمن *الشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي* التابعة لليونسكو. وهم ماضون قدما على الطريق الصحيح للحفاظ على المياه التي تضمن لهم البقاء على قيد الحياة.

تنشر رسالة اليونسكو هذا المقال مساهمة منها في الاحتفال *باليوم الدولي للتنوع البيولوجي* (22 مايو).

«أخرج على متن قاربي يوميا لمدة ست ساعات، وأعبر البحيرة بعيدا، وقد أبلغ أحيانا الضفة الأخرى، حسب حالة الطقس. لا أرى شيئا سوى أرض ممتدة إلى ما لا نهاية... حيث كان يعيش أسلافي. وأذكر أبنائي بذلك قائلا: "انظروا إلى الأرض وسوف تخبركم بقصتها. ألا تريدون الإنصات إليها؟ غير أنكم تعرفونها تمام المعرفة"». هذا الرجل الذي يطالب أبناءه بالإنصات إلى صوت أرض أجدادهم ولا يتردد في عبور منطقة متجمدة على امتداد 30.000 كيلومتر مربع، يدعى ريموند توتشو. وهو يعيش على ضفاف بحيرة الدب الكبرى، آخر بحيرة كبيرة في القطب الشمالي بقيت عذراء.

إن احترام الطبيعة والأسلاف متجذّر في أذهان شعبه الذي لا يعد أكثر من 600 شخص، أغلبهم تقريبا من سلالة *ساهتوتو إين* المنتمية لفرقة ديني وهي مجموعة منحدرة من الأمم الأوائل، تعيش في المنطقة الوسطى لأقاليم الشمال الغربي في كندا. وقد استقروا في بلدة ديلين الواقعة على الضفة الغربية للبحيرة. وتعني عبارة *ساهتوتو إين شعب بحيرة الدب* وديلين *«حيث تتدفق المياه»*.

وقد تولى توتشو رئاسة حكومة غوتين ديلين الجديدة، وهي أول حكومة للشعوب الأصليّة في كندا تتمتع بالاستقلال الذاتي، تشكلت في سبتمبر 2016.

أواصر تعود لآلاف السنين

ويعتقد الساهتوتو إين أن البحيرة تحتوي على ما يسمونه تودز، أي «قلب الماء»، يخفق في أعماقها، ويضخ المياه – منبع الحياة – من الأنهار ومحيطات العالم. بالنسبة لهم، تشكّل النقاوة الطبيعية لبُحيرة الدب الكبرى مصدر علم الكونيات، والتاريخ، والقانون التقليدي وكذلك الاقتصاد المبني على الموارد المتجددة.

ترتكز معتقدات شعب الديني الروحيّة، على احترام عميق لجميع عناصر الكون. وهم يعتبرون أن الحيوانات والطيور والأسماك والرعد والبرق والماء والصخور، كلها مفعمة بقوة حيوية ذاتية.

يعيش شعب بحيرة الدب الكبرى بالأساس من الموارد المُتجددة التي تمنحها البحيرة

تنبض الحياة في كل عنصر من عناصر الطبيعة، وكل عنصر له روح خاصة. وهذه النظرة للعالم هي التي ترشد هؤلاء المتصرفين البارعين في الأرض على سبل المحافظة على جوهر هويتهم كساهتوتو إين.

وتؤكد الرسالة الثابتة المنقولة عن الأسلاف على ضرورة السلوك مثل الحارس الأمين لكل ما جادت به الطبيعة. وطالما تمت رعاية هذه النعم والمحافظة عليها في حالة جيدة، فسوف تستمر في المنّ بمنافعها للجميع.

يقول شارلي ناييل، مندوب الشيوخ في المجلس الأعلى: «*تعود الأواصر التي تربطنا بالبحيرة ونواحيها إلى آلاف السنين. لقد تنبأ البعض بأن بحيرة الدب الكبرى سوف تكون آخر مكان تتدفق فيه المياه، وذلك لأن قلب الماء سوف يخفق بدون انقطاع.*» ويضيف: «*ولكن، إذا قمنا بطعنه وتسببنا في موته، فسوف يموت كل شيء. وحتى لا يحدث ذلك، علينا تعليم الناس مدى أهمية المياه*».

ويوضح الشيخ ليون موديست: «*نحن لا نهتم بالمال*». إن ما يثير قلق المجموعة هي المشاريع التنموية الجديدة التي قد تهدد بالإخلال بالتوازن الطبيعي للبحيرة.

التصرف في الأراضي بالقدر المناسب

على الرغم من أن شيوخ ديلين كانوا دائما يحثون الجميع على العيش في وئام مع محيطهم، الاّ أن تغّير المناخ وضغوط التنمية المتزايدة تحتّم أكثر فأكثر احترام التقاليد، وتدعو لاتخاذ تدابير أخرى للمحافظة على طريقة العيش القديمة.

يقتات المجتمع المحلي أساسا من الصيد البحري والبري. ويشمل اقتصاده المرتكز على الموارد المتجددة، بعض الأنشطة السياحية التي تتوسع شيئا فشيئا، وكذلك تطوير البنى التحتية.

وقد شكل الحصول على الحكم الذاتي دافعا هائلا للاقتصاد. هذا المكسب الذي تم الفوز به بعد عقود من النشاط السياسي، يعني أن سكان ديلين أصبح لديهم حكومة خاصة بهم، لها قواعدها، وأنه أصبح بإمكانهم العمل على الحفاظ على ثقافتهم ولغتهم وممارساتهم الروحية وعلى طريقة عيش مرتبطة شديد الارتباط بالطبيعة.

وعلى سبيل المثال، عندما لوحظ أن عدد الوعول قد تقلص خلال الخمسة عشر سنة الماضية لينخفض من 500.000 رأس الى 60.000 بسبب التغيّر المناخي، قررت حكومة غوتين ديلين تقييد ضوابط الصيد.

يقول ليونارد كيني، المكلف بالتنمية الاقتصادية المجتمعية في الحكومة: «*جميعنا يحترم هذه القواعد*». ولكن لا يزال المواطنون يصطادون «*إلى حد ما*» حيوانات أخرى، مثل الموظ.

في عام 2013، عقد شيوخ منطقة ديلين والمنظمات الرئيسية للمجتمع محادثات حول إنشاء محميّة للمحيط الحيوي. وقد تمّ تشكيل اللجنة التوجيهية لمحميّة تسا توي في العام التالي. وقد ساهمت هذه الشراكة بين المنظمات الحكومية وغير الحكومية في توسيع التوافق حول الدور الحاسم الذي يجب أن يلعبه السكان الأصليين في إدارة أراضيهم.

وفي مارس 2016، انضمت تسا توي إلى *الشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي* التابعة لمنظمة اليونسكو، وقد حظي *الحدث* بالترحيب والاحتفال من قبل المجتمع المحلي. وقد صرحت جينا بايها، إحدى منسقات المشروع: «*لا يمكن للبحيرة أن تتكلم، لذا سوف نتكلم بالنيابة عنها*».

يتولى مجلس التصرف في محمّية المحيط الحيوي تسا توي، المؤلف من سكان بلدة ديلين، مسؤولية تنفيذ برنامج المحيط الحيوي. ويضّم ممثلين عن مجلس ديلين المكلف بالموارد المتجددة، وهيئات رئيسية الأخرى، والوكالة الحكومية *باركس كندا*، وعدد من الشيوخ والشباب. وتعتمد قرارات المجلس بالتوافق.

تعد *تسا توي* التي تبلغ مساحتها 93.300 كيلومتر مربع، أكبر محيط حيوي في قارة أمريكا الشمالية. وتشمل بحيرة الدب الكبرى (أكبر بحيرة تقع بالكامل داخل الأراضي الكندية)، وجزء من مستجمعها المائي الواقع في مقاطعة ديلين، داخل أراضي ساهتو.

وينقسم المستجمع المائي المكون من مساحات برية شاسعة تزخر بالغابات الشمالية وغابات الصنوبر والأنهار والجبال، إلى ثلاث مناطق بيئية: غابات الصنوبر في السهول الغربية؛ درع غابات الصنوبر في الجنوب الشرقي الذي يشمل منطقة تصريف نهر كامسيل؛ والمنطقة البيئية للقطب الأسفل على الضفة الشمالية الشرقية للبحيرة. وفي هذه المناطق البيئية، تم تصنيف الأراضي إلى تسعة جهات بيئية واثنين وعشرين مقاطعة بيئية، تعرض كل منها مزيج من التضاريس الأرضية، والتربة دائمة التجمد، وأنواع أخرى من التربة، والأنظمة المناخية وتجمعات بيولوجية تضفي عليها خصوصية فريدة من نوعها. وإجمالا، تمت حماية مياه تسا توي من التلوث، وبقيت مصائد السمك في حالة جيدة، كما أن الضفاف مليئة بالحيوانات البرية.

ومن الحيوانات المتواجدة بكثرة نذكر وعل السهول الجرداء، والدب الرمادي، والموظ وثور المسك، إضافة الى مجموعة متنوعة من الطيور المهاجرة، مما يدل على السلامة البيئية العالية التي يتمتع بها الموقع.

لا تدع الحداثة تمحو ماضيك

إن التوفيق بين التقليد والحداثة مع ضمان حماية رفاهية السكان الأصليين الاقتصادية والاجتماعية، ليس أمرا هينا. ولا تستثني هذه المشكلة الأمم الأوائل في كندا. إن الحياة العصرية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتقنيات الحديثة، التي يعتمد استخدامها على معرفة اللغات الحديثة. يتعلم الشباب اللغة الإنجليزية، فيفقدون تدريجيا كل صلة بلغتهم القبلية.

ووفقا *لأطلس اليونسكو الخاص بلغات العالم المعرضة لخطر الانقراض*، هناك ثمانية وثمانون لغة مهددة بالانقراض في كندا. من بينها لغة *ساهتوت إن ياتي*، التي تتكلّمها شعوب بحيرة الدب الكبرى والموزعة على أربع مجموعات في كندا (1100 من المتحدثين بهذه اللغة في عام 2006).

وقد تم تصنيفها كلغة «في خطر»، أي أن الأطفال لم يعودوا يتعلمّون لغتهم الأم في الإطار العائلي. وبين درجة «في خطر» ودرجة «منقرضة»، لم تبق سوى ثلاث درجات.

ما السبيل إذن في هذه الحالة، لنقل معارف الأسلاف وحكمتهم إلى الأجيال الشابة؟ مع انقراض اللغات، تنقرض المعرفة الأصلية.

في 6 ديسمبر 2016، أعلن رئيس الوزراء الكندي جوستين ترودو عن التزامه «*بأن تقوم الحكومة بسن قانون يتعلق بلغات السكان الأصليين، يتم تشريك الشعوب الأصلية في صياغته، بهدف ضمان حفظ لغات الأمم الأولى ومجموعات السكان المخضرمين والإنويت، وحمايتها إحيائها*».

وتسعى *حكومة غوتين ديلين* على تعزيز منظومة التعليم وتعتزم إصدار قوانين تضمن لسكان ديلين الحق في التكوين في لغتهم الأصلية وتشجّعهم على استخدامها في حياتهم المهنية.

تعكس هذه الجهود، في نفس الوقت، روح الانفتاح التي تتحلى بها كندا، والعودة إلى السيادة التقليدية في إطار هياكل الحوكمة الحديثة. وهناك العديد من العبر التي يمكن استخلاصها لدعم مبادرات أخرى لصالح المحيط الحيوي قصد إقامة علاقات جديدة على أساس الاحترام والوئام والتضامن بين البشرية وكوكب الأرض.

ونأمل أن تساهم تجربة تسا توي على تشجيع مجتمعات الشعوب الأصليّة الأخرى على الانخراط أكثر فأكثر في إدارة محميات المحيط الحيوي المتواجدة على أراضيها.

محميات المحيط الحيوي

تشكل *الشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي* التابعة لمنظمة اليونسكو محور برنامج *الإنسان والمحيط الحيوي* الذي أطلقته اليونسكو سنة 1971. ويميّز هذا البرنامج الحلول التي توفق بين المحافظة على التنوع البيولوجي واستخدامه المستدام. وتمثل محميات المحيط الحيوي، التي تتألف من النظم البيئية البرية والبحرية والساحلية، فضاءات خصوصية يتم فيها اختبار مناهج متعددة الإختصاصات لفهم وإدارة تغيرات النظم الاجتماعية والبيئية، والتفاعلات في ما بينها، بما في ذلك الوقاية من الصراعات والمحافظة على التنوع البيولوجي. وتبقى المحميات التي تعود تسميتها للحكومات الوطنية، خاضعة للمنظومة القانونية للدول التي توجد فيها.

بحيرة الدب الكبرى عند الغروب. يعتقد السكان المحلّيون أن تودزه، «قلب الماء»، يخفق في أعماق هذه البحيرة العظيمة، وهي آخر بحيرة بقيت سليمة في المنطقة القطبية الشمالية

© Fritz Mueller/Parks Canada

الذكرى 70

لتأسيس الرسالة
مدرسة الفكر الحر

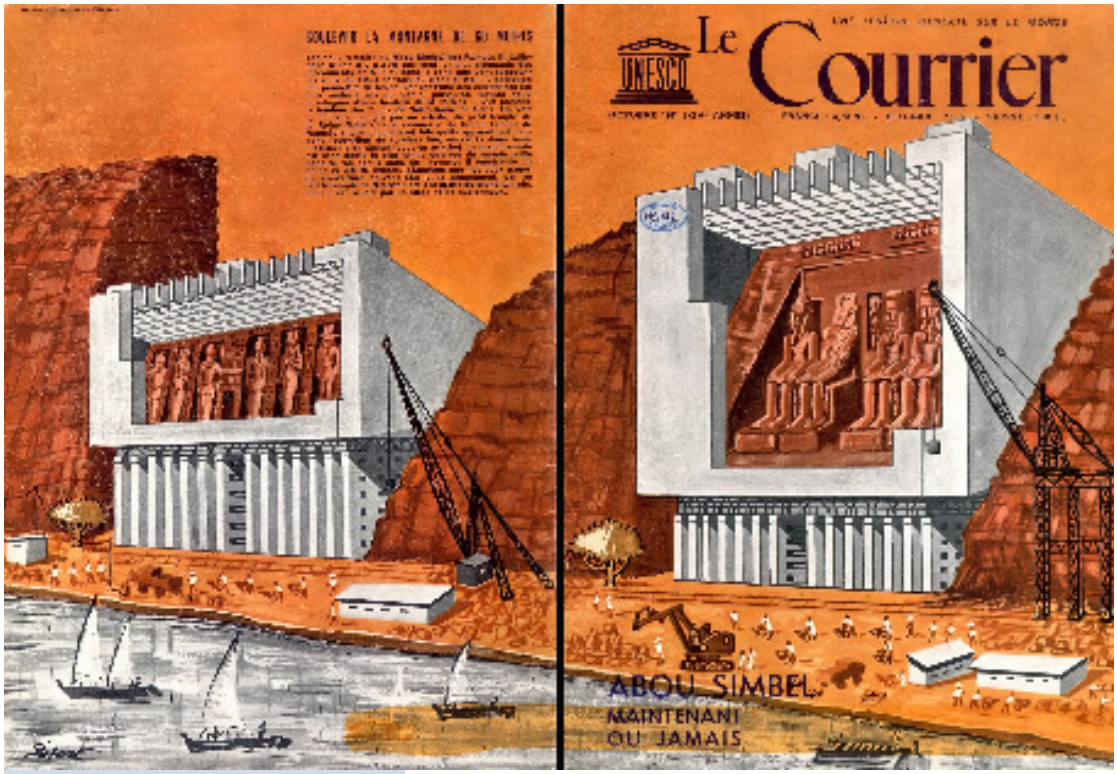

© UNESCO

رسالة اليونسكو، أكتوبر 1961

بقلم روبرتو ماركاريان

في الستينات من القرن الماضي، كان يعيش في الأحياء الفقيرة لمدينة مونتيفيديو مراهق لم يعد يطيق وضعه في وسط عائلي جاهل. كان يطوق إلى الرحيل. وبالفعل، نجح في الدراسة وتألق في اختصاص الرياضيات البحتة والتطبيقية في البرازيل، وفي نهاية المطاف، انتُخب عميدا لجامعة الجمهورية في الأوروغواي سنة 2014. ولكن قبل ذلك، كان روبرتو ماركاريان قد تابع دراسة من نوع آخر – مدرسة الفكر الحر – التي اكتشفها على صفحات مجلة رسالة اليونسكو.

توافق سنة 2018 الذكرى الخمسين لإتمام حملة إنقاذ موقع أبي سمبل.

نشأت في وسط متواضع جدا: أجدادي أميون ووالداي لا يقدران على القراءة والكتابة إلا القليل. تثقفت من دراستي في نظام التعليم العام في بلادي الأوروغواي، ومن خلال المطالعة. لما كنت في سن المراهقة بين 12 و17 عاما، كنت أقرأ بانتظام مجلة *رسالة اليونسكو* حيث أجد ما يخمد تعطشي للثقافة. لا زالت الصور على أغلفة المجلة تراود ذاكرتي، وأستَحضر الكثير من تلك المسائل التي كانت تثير الأوساط العلمية والثقافية والتربوية خلال القرن الماضي. ويبقى العديد من هذه القضايا مطروحا حاليا ولم تفقد أهميتها، مثل تحديات محو الأمّية، والحصول على المياه العذبة، والحفاظ على التراث التاريخي للانسانية، وما إلى ذلك.

ومنذ انطلاقها سنة 1948، سرعان ما اكتسبت المجلة مكانة مرموقة بفضل انفتاحها الفكري الذي جعل منها مصدرا مرجعيا حول المسائل الساخنة والقضايا المثيرة للجدل.

كنت أعلم أنني سوف أجد على صفحاتها آراء متنوعة، ووجهات نظر – ليست بالضرورة بعيدة عن السياسة لأن الأمر لا يتعلق بذلك – ولكنها موضوعية، وتحاليل مبسّطة وعميقة في نفس الوقت.

لقد احتفظت بذكريات حية تتعلق، بشكل خاص، بحملة النوبة. كنت في ذلك الحين تلميذا في المدرسة الثانوية، وكنت لا أعرف شيئا عن معبد أبي سمبل. واكتشفت في *رسالة اليونسكو*، العدد المؤرخ في فبراير 1960 بعنوان *انقاذ كنوز النوبة*، أن بناء سد أسوان على نهر النيل في مصر سوف يغمر معالم أثرية تعود إلى 3000 سنة. كان ذلك في نهاية الخمسينات، وقد جندت اليونسكو العالم كله لإنقاذها.

ونجَحت المنظمة في الحصول على دعم دولي هائل لإنجاز هذا العمل الجبار المتمثل في تفكيك معبد أبي سمبل العظيم وإعادة بنائه في موقع آخر يعلو الموقع الأصلي بعشرات الأمتار، مع السهر على احترام نفس الوجهة بحيث تخترق أشعة الشمس الحرم الداخلي للمعبد مرتين في السنة، كما كان يحدث في الموقع الأصلي.

مجلة للاستنارة

لقد أثار إعجابي العمالقة الأربعة لرمسيس الثاني، فوجدت في *رسالة اليونسكو* الصادرة في أكتوبر 1961 والتي تحمل عنوان *أبو سمبل، الآن أو أبدا*، هذا التفسير المفصل بقلم الكاتب العلمي البريطاني الشهير بيتر ريتشي-كالدر: «*ممر ضيق يؤدي إلى الحرم الداخلي الذي يأوي تماثيل الآلهة الثلاثة التي ينسب إليها المعبد، بالإضافة الى تمثال رمسيس نفسه.*

وفي هذا المكان، تتجلى أمام أنظارنا البراعة الألمعية للمصممين المعماريين والمهندسين. فكما لو كانوا أخصائيين في الأضاءة في الزمن الحديث، تصوّروا وصول أشعة الشمس إلى قلب الجبل لتضيء المعبد على ارتفاع 63 مترا. ولم تتوقف عبقريتهم على هذا الإنجاز، بل أفلحوا في ترك التمثال الرابع، وهو «بتاح» إله الجحيم (على الطرف الأيسر) في ظلام دائم، في حين تطلع الشمس لتنير تدريجيا التماثيل الثلاثة الخالدة. وقد شكلت هذه السمة الخاصة بأبي سمبل، والفريدة من نوعها في العالم، أحد العناصر الحاسمة في اختيار المشروع النهائي لإنقاذ المعلم».

الصفحة الخلفية من غلاف الرسالة، فبراير 1967: نقل رمسيس إلى مقر جديد

© UNESCO

وتابعت المجلة، عاما بعد عام، كل مراحل هذه الحملة الدولية غير المسبوقة: *إطلاق حملة النوبة* (مايو 1960)، *حفريات في خدمة التاريخ* (نوفمبر 1962)، *نصر كبير في بلاد النوبة* (ديسمبر 1964)، *تفكيك معبد أبي سمبل* (نوفمبر 1965)، *نقل رمسيس إلى مقره الجديد* (فبراير 1967)، *أعظم عملية إنقاذ أثرية في كل العصور* (فبراير – مارس 1980). وقد أعطت المجلة صدى واسعا لهذا الانتصار العظيم للتضامن الدولي، وخصصت له مقالا في *عددها الصادر في أغسطس - سبتمبر* 1971.

في فترة شبابي، شملت قائمة الكتاب المساهمين في *رسالة اليونسكو* ألبرت أينشتاين، وكلود ليفي شتروس، وجورج أمادو، وبرتراند راسل، وروبرت كابا... ومن خلال مطالعة رسالة اليونسكو، اكتشفت من كانوا، وما أنجزوه وما كانوا يعتقدونه. لقد أتاحوا لي أن أنظر من خلال «*نافذة مفتوحة على العالم*»، وكانت هذه العبارة شعار المجلة.

حين بدأت الحياة الجامعية لدراسة الهندسة والرياضيات، في منتصف الستينات، كرست الكثير من وقتي للأنشطة النقابية وإدارة الجامعة، وتوقفت عن قراءة *رسالة اليونسكو* بانتظام. ولكن لحسن الحظ، وعلى الرغم من تقلبات تاريخ بلادي، تمكنت من الحفاظ على أغلب الأعداد في ملف محكم بإطار من الأسلاك الحديدية، وقد تبدو اليوم هذه الطريقة قديمة شيئا ما.

أما *رسالة اليونسكو*، فقد استمرت في الصدور حتى عام 2001، ولم تعد شهرية اعتبارا من تلك السنة. وأدى نقص التمويل والدعم إلى توقف نشرها عام 2011. فخِلناها غابت إلى الأبد.

نداء للإنسانية

ولكن، بعد مرور خمس سنوات، ظهرت المجلة من جديد. وتم نشر العدد الأول في أبريل 2017، تحت شعار: «*أصوات متعددة، عالم واحد*». والمجموعة الكاملة ، من عام 1948 إلى اليوم، متوفرة في *الأرشيف الرقمي* للمجلة. إن معظم الأعداد متاحة باللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية، لكن الأعداد التي صدرت خلال السنوات الأخيرة تتوفر بالعديد من اللغات الأخرى. وأدعوكم لزيارة *موقع المجلة*، فهي جديرة باهتمامكم.

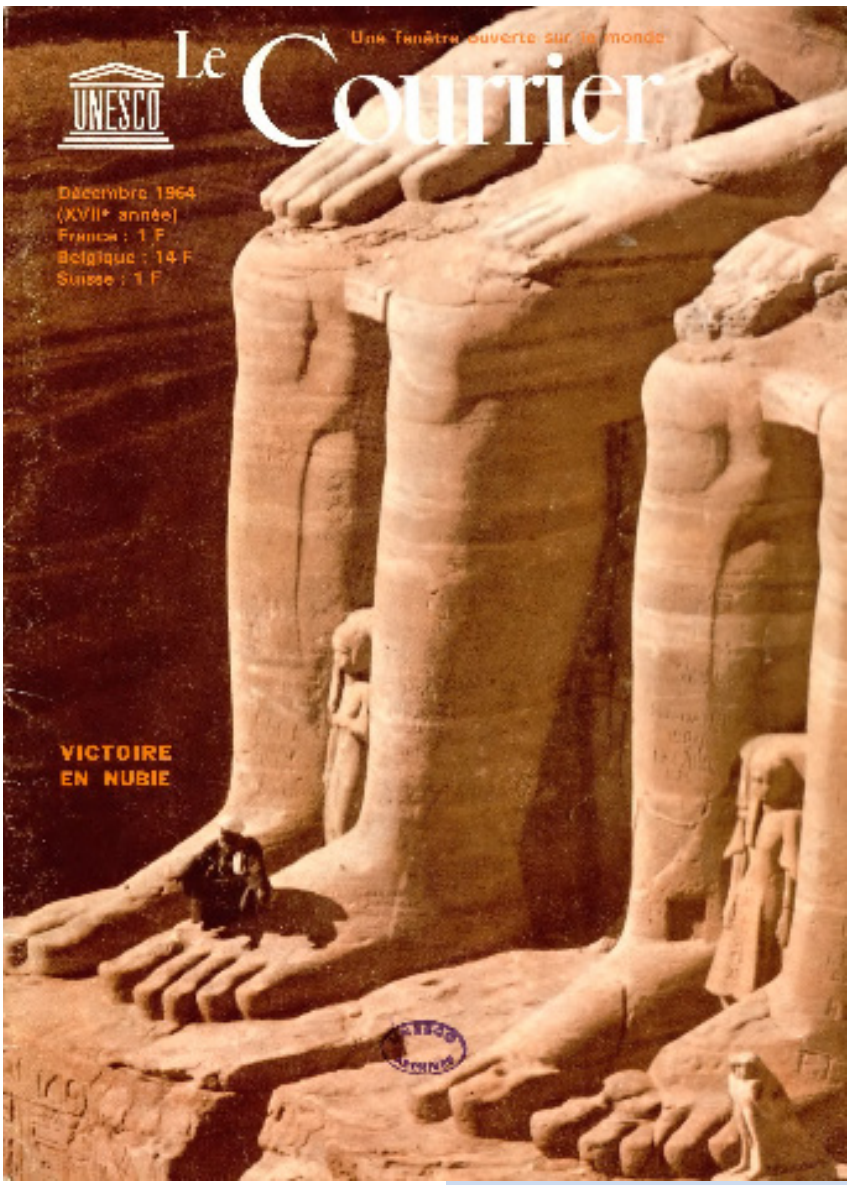

© UNESCO

رسالة اليونسكو، ديسمبر 1964

وتتناول المجلة القضايا الراهنة الرئيسية التي تواجه الإنسانية من منظور جدي، وبطُموح هائل – وهو من أهم مزايا منظمة اليونسكو، في الماضي والحاضر – لتعزيز التواصل بين الأفكار المتنوعة، وبين الطرق المختلفة لتناول المشاكل، وهي بذلك توجه نداء إلى المجتمع البشري.

وللتأكيد على ما ذكرته في العديد من المناسبات، فإن المساهمة الرئيسية للمجلة تتمثل في الترويج لثقافة تنوع الآراء والاحترام المتبادل. وقد اكتسبت هذه الثقافة، وأقول هذا بكل صدق – باعتبار خلفيتي العائلية – من خلال مطالعة *رسالة اليونسكو*، بكل شغف وحماس: كنت شابا حريصا على التعلّم، ووجدت في صفحاتها ما يرضي تطلعاتي. ولهذا السبب، قبلت بكل رحابة صدر كتابة هذه السطور.

تكتسي منظمة اليونسكو ورسالتها أهمية بالغة في عالم اليوم والغد، حيث أن المبادئ الأساسية للميثاق التأسيسي للمنظمة أصبحت اليوم موضع اختبار من قبل أولئك الذين يروجون «*لتبديد الفهم المتبادل بين الشعوب*» وينكرون تلك المبادئ عن طريق «*استغلال الجهل والأفكار المسبقة*». علينا أن لا ننسى هذا.

روبرتو ماركاريان (الأوروغواي) هو رئيس جامعة الجمهورية وأستاذ فخري في معهد رافائيل لاغورديا للرياضيات والإحصاء في كلية الهندسة في نفس الجامعة. انخرط في العمل النقابي كطالب ثم كأستاذ. وقد سجن لأسباب سياسية من عام 1976 إلى عام 1982، أثناء الدكتاتورية العسكرية في الأوروغواي. وفي سنة 2015 في مونتيفيديو، بمناسبة الاحتفال بالذكرى السبعين لإنشاء اليونسكو، تناول ماركاريان في خطابه موضوع «اليونسكو وأثرها على أمريكا اللاتينية»، حيث سلط الضوء على دور مجلة *رسالة اليونسكو*.

> *جندت اليونسكو العالم كله لإنقاذ كنوز النوبة*

رحلة عبر التنوع الثقافي في العالم، بوصلتها كرامة الإنسان

لم تعد للمغامرة آفاق جغرافية. ولم يعد يوجد في يومنا هذا قارات غير مستكشفة أو بحار غير معروفة أو جزر غامضة. لكن الشعوب بقيت في عديد الجوانب غريبة بعضها عن بعض، ولا تعرف إلا القليل عن تقاليد غيرها، وعن آمالها المكتومة، وعن قناعاتها الباطنية... لم يعد للرحالة يوليسيس مجالا لاستكشاف مساحات جغرافية جديدة. لكن قد يكون له في يومنا هذا مجال جديد لينطلق عاجلا في مغامرة لاستكشاف ما يتضمنه عالمنا من ألف مشهد ومشهد ثقافي، ومن تنوّع لامتناهي للأفكار والحِكم الحية، قصد التعرف على الإنسان من مختلف جوانبه. تلك هي المغامرة التي تدعوكم إليها *رسالة اليونسكو* من خلال نشر ملف شهري يتناول موضوعا كونيا، يساهم فيه مؤلفون من جنسيات واختصاصات واهتمامات مختلفة. رحلة عبر التنوع الثقافي في العالم، بوصلتها كرامة الإنسان أينما كان.

يونيو 1989. الافتتاحية الأولى بقلم بهجت النادي وعادل رفعت، مدير ورئيس تحرير رسالة اليونسكو (1988-1998)

أيها النهر العجوز، انظر إلى الرجال الذين يحملون هؤلاء العمالقة بعيدا عن مياهك

شرعت اليونسكو، في 8 مارس 1960، في حملتها الدولية للمحافظة على معالم النوبة. وقد أشرف أندري مالرو على مراسم إطلاق الحملة في مقر اليونسكو، وكان آنذاك وزير الدولة المكلّف بالشؤون الثقافية في فرنسا. وفي ما يلي مقتطفات من خطابه الذي تم نشره في *رسالة اليونسكو في مايو 1960*.

إن الأسلوب المصري، بما يتميّز به من صروح شاهقة، صُمّم لوضع وسائط بين الإنسان المدعو إلى الزوال والكواكب التي تُسيّره. وقد أفضى على الليل صبغة إلهية. ذلك ما نشعر به عندما نولّي وجهنا صوب أبي الهول في الجيزة، وما أحسست به عندما نظرت إليه في المرّة الأخيرة عند الغروب: «*في البعيد، يُغطّي الهرم الثاني الأفق، ويجعل من ذلك القناع المُتمي الشامخ حارسا على الفخ المنصوب ضد أمواج الصحراء وضد الظلمات. تلك هي الساعة التي تسترجع فيها الأشكال القديمة الهمسات الحريرية التي تجيب بها الصحراء على ركوع المشرق منذ القدم. هي الساعة التي تُعيد فيها تلك الأشكال الحياة إلى المكان حيث نطقت الآلهة، وتزيح العظمة التي لا شكل لها، وتُرتب الكواكب التي تبدو وكأنها لا تظهر ليلا إلّا لتطوف حولها.*»

وبعد ذلك، وطوال ثلاثة آلاف سنة، قام النمط المصري بتحويل الفاني إلى أبدي.

ولا بد أن ندرك تمام الادراك أنه لا يُؤثّر فينا فقط لكونه يشهد على التاريخ، ولا لما كان يُسمّى سابقا الجمال. فالجمال أصبح أحد أكبر ألغاز عصرنا هذا، ذلك الحضور الغامض الذي يؤلف بين صروح مصر وبين تماثيل كنائسنا أو المعابد الأزتيكية، ومغارات الهند والصين، – ولوحات سيزان وفان غوخ، من أكبر الأموات إلى أكبر الأحياء – لتكون كنز أول حضارة عالمية.

إنه انبعاث عظيم، سوف ننظر قريبا إلى عودته وكأنها مجرد مسودة محتشمة. فلأوّل مرّة تكتشف الإنسانية لغة كونية للفن. نشعر بقوّتها بكل وضوح رغم قلّة معرفتنا بطبيعتها. ولعل مصدر هذه القوة يعود إلى أن هذا الكنز الفني، الذي وعت به الإنسانية لأول مرّة، يأتي لنا بأعظم انتصار للأعمال البشرية على الموت.

قد لا يجمع بيننا وبين نحّاتي أصنام الصوان لا الإحساس بالحب ولا الاحساس بالموت، ولا حتى، ربّما، طريقة النظر إلى أعمالهم. إلا أننا أمام هذه الأعمال، تبدو لنا لغة هؤلاء النحّاتين المجهولين أو المنسيّين طيلة ألفي سنة، صامدة أمام تداول الامبراطوريات، بمثل صمود لغة الحب الأمومي. (...)

نحن ممتنّون لك (سيدي المدير العام لليونسكو) على إعداد هذا المخطط ذي الجرأة الرائعة، والذي جعل من انجازك أشبه ما يكون بوادٍ في تينيسي علم الآثار. (...)

إن نداءك هو جزء من تاريخ الفكر، لا فقط لأن غايتك هي إنقاذ معابد النوبة، وإنما أيضا لأنه، من خلال هذا النداء، تطالب أول حضارة عالمية، وبصفة علنية، بأن يُصبح الفن العالمي موروثا لا يتجزّأ. أما الغرب فإنه، لما كان يعتقد أن إرثه يبدأ بأثينا، كان ينظر بلامبالاة إلى الأكروبول وهي تنهار...

لقد عكست مياه النيل في تدفقها البطيء الصفوف الآسفة المذكورة في الإنجيل، وجيوش قمبيز والإسكندر، وفرسان بيزنطة وفرسان الله، وجنود نابليون. وعندما تهبّ على النهر رياح الصحراء، لعلّ يختلط في ذاكرته العريقة، دون مبالاة، الرذاذ الساطع لانتصار رمسيس، مع الغبار الحزين الذي يسقط وراء الجيوش المهزومة. وحين ينقشع الرمل، يلتقي النيل من جديد مع الجبال المنحوتة، ومع العمالقة الذين يُرافق منذ القدم بريقهم الثابت همساته الخالدة.

أيها النهر العجوز الذي سمح فيضانه لعلماء الفلك بتحديد أقدم تاريخ، أنظر إلى الرجال الذين سيحملون هؤلاء العمالقة بعيدا عن مياهك الولّادة والهدّامة في ذات الحين: إنهم قادمون من كل أنحاء الأرض. وحين يُخيّم الليل، سوف تعكس مياهك مرّة أخرى نور الكواكب التي كانت إيزيس تُقيم على ضوئها طقوس المآتم، وسوف تعكس النجم الذي كان يتأمّل فيه رمسيس. لكن العامل المتواضع الذي سيُنقذ تماثيل إيزيس ورمسيس سوف يقول لك ما تعلمه منذ القدم والذي ستسمعه لأول مرّة: «*إن الفعل الوحيد الذي لا تُضاهيه لامبالاة الكواكب ولا الهمس الأبدي للأنهار هو ذلك الذي ينتزع به الإنسان شيئا من الموت*».

أندري مالرو

صورة نشرت في الرسالة، فبراير-مارس 1980. نصر كبير في بلاد النوبة: أعظم عملية إنقاذ أثرية في كل العصور

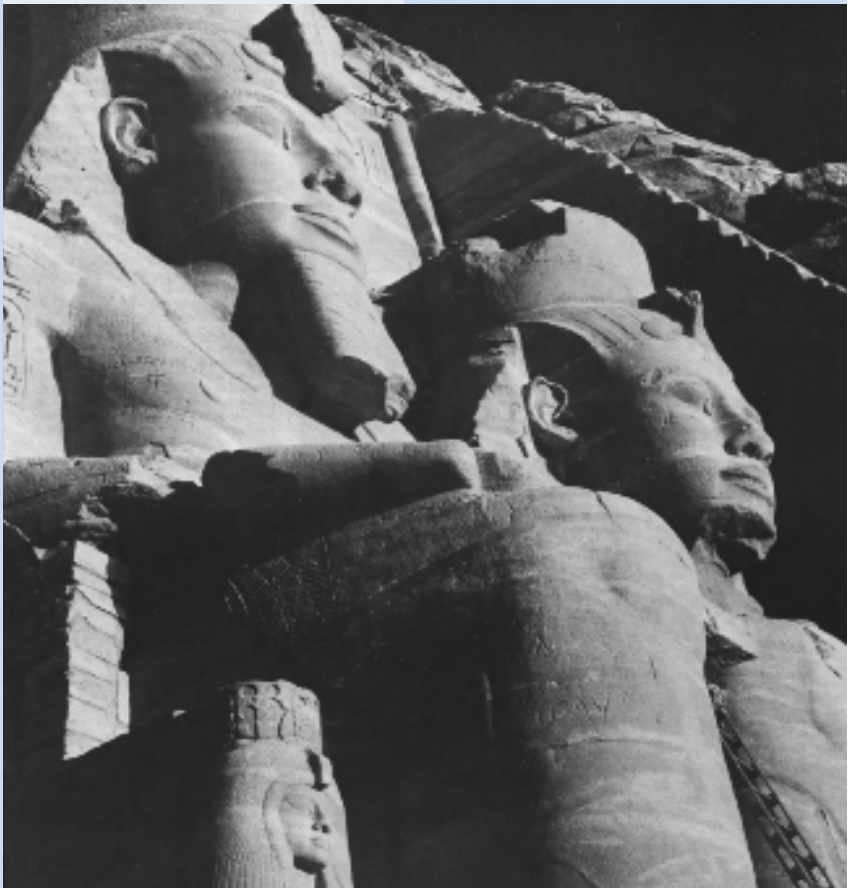

© DR

منشورات اليونسكو

منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

www.unesco.org/publishing
publishing.promotion@unesco.org

التهجم على فرد واحد هو تهجم على الجميع

مبادرات ناجحة لحماية الصحفيين ومكافحة الإفلات من العقاب

978-92-3-600066-4

98 صفحة، PDF

متوفّر في http://unesdoc.unesco.org

عندما تقرؤون الأخبار حول الصحفيين الذين يتعرّضون في مختلف أنحاء العالم إلى الاعتداءات، والتعنيف، والمضايقات، والسجن، وحتى إلى الاغتيال، قد ينتابُكم الشعور باليأس. فالأرقام ساحقة: أكثر من 800 قتيل خلال العشرية الماضية. ولم تتم إحالة إلا القليل النادر من مقترفي هذه الجرائم على العدالة.

في مثل هذا المشهد، تقوم أطراف مُتعدّدة من مؤسسات إعلامية، وصحفيين بصفتهم الشخصية، وجمعيات إعلامية، ومنظمات غير حكومية بردّ الفعل من خلال مبادرات نشيطة وفعّالة لتعزيز حماية الصحفيين ومقاومة الإفلات من العقاب. يجمع هذا التقرير البعض من هذه الأحداث.

حرف المعادن في حلب: الإرث والخلف

978-92-3-600067-1

292 صفحة، 22X28 سم، 30 يورو

اليونسكو/مطبعة المعهد الفرنسي للشرق الأدنى

هذا الإصدار هو في نفس الوقت وثيقة علمية تعرض الجوانب الفنية والعملية للصناعة التقليدية بالمعادن في حلب، وهو أيضا دراسة مُعمّقة للجوانب الاجتماعية والثقافية والحضريّة المُنظّمة لورشات المعادن في هذه المدينة السورية الكبيرة.

هذا الكتاب هو نتيجة تحقيقات مُعمّقة حول أهم ورشات المعادن، التقليدية والأكثر حداثة، في حلب، اعتمدت على ثلاثة بحوث أُجريت بين 2004 و2009، أي قبل بداية النزاع في سوريا.

تقرير الأمم المتحدة العالمي بشأن تنمية الموارد المائية 2018

لحلول القائمة على الطبيعة لإدارة الموارد المائية

978-92-3-200147-4

156 صفحة، 29,7X21سم، 45 يورو

المُلخّص مُتوفّر في

http://unesdoc.unesco.org

يهدف التقرير العالمي بشأن تنمية الموارد المائية 2018 إلى إعلام أصحاب القرار من السياسيين والذين يعملون في مجال المياه وخارجه، بالحلول المكنة والمرتكزة على الطبيعة لرفع الرهانات المعاصرة في مجال التصرّف في الماء في مختلف القطاعات، وخاصة منها المياه المُخصّصة للقطاع الفلاحي، والمدن المستدامة، وتقليص مخاطر الكوارث، وتحسين جودة المياه.

الذكرى 70 لتأسيس الرّسالة

© UNESCO